اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

---

[٣٠٦]

رئيس التحرير

رجب البنا

نائب رئيس التحرير
حمدى عباس

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
الفنان شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ — E-mail: maaref@idsc.net.eg

الدكتور حسين فوزى

سندباد
فى رحلة الحياة

الطبعة الثانية

دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٢

فى ضباب الذكريات البعيدة

لم أكن بلغت السادسة من العمر، أو ربما الخامسة، عندما وعدنى والدى بالتوجه سويًا لمشاهدة أهرام الجيزة وأبى الهول. بيد أنى أذكر ذلك اليوم أكثر مما أستعيد وقائع أهم وأقرب إلى الحاضر فى حساب السنين، ولا يمكننى - مع هذا - التوكيد بأن رحلة الأهرام وأبى الهول وحدها مسئولة عن اغتباطى بالنزهه من وسط القاهرة المعزية. كنا نسكن حينئذ أمام مسجد سيدى الشعرانى - ونسميه الشعراوى - حتى أطراف العمران، على حافة الصحراء، ربما كان مبعث سرورى هو ترقب نزهة خلوية، كانت تعد سفرًا طويلا بالنسبة لى. وكنت مثل كل أطفال ذلك الزمان أحب ركوب «الترام» أكثر من عربات الخيل، «والأتوبوس» أكثر من «الترام» . أما القطار فكان يمثل لمخيلتى متعة العمر وأنا أراه ينفث دخانه ويزفر ويصفر ويزمجر: «توت توت، تشك، تشك، تشك، تف، تف،تو.. و.. ت !».

جاء اليوم الموعود، يوم جمعة، فصحوت من النجمة والجميع نيام، وأنا أحس فى تلك السن الباكرة أننا أسرة عنيدة، أفرادًا وجماعة. فما إن رأيت الشمس ترتفع فى كبد السماء والأسرة مازالت نائمة حتى خشيت أن تسوق «العند» وتعطل رحلتى المرتقبة. وبعد استيقاظ الجميع، ظل الوالد نائمًا وليس هناك من يجسر على إيقاظه، ممن لهم عليه بعض السلطان.

وبعد الساعة الحادية عشرة سحبنى والدى من يدى وخرجنا.. أخيرًا.. لنقف عند الحلاق ! ماذا تصنع إرادة طفل ؟ ماذا لو انسقت لعنادى وركبت رأسى، وطالبت بالعودة إلى المنزل لأمارس ألعابى الكثيرة ؟ لأننى أعرف دكان ذلك الحلاق أمام محطة ترام الخليج المصرى المسماة «خميس العدس» ونسميها «خميس عتس» . لم تك أول مرة يصحبنى إليها والدى، وأعرف أن الوقت يضيع هناك بين مرآتين كبيرتين متواجهتين، تعكس كل منها الأخرى فيتحول الحانوت الذى يشبه شق الثعبان.. إلى نوع من بهو المرايا الذى فى فرساى. صاحب الصالون يونانى، وزبائنه خليط من المصريين واليونان والطليان والأرمن، وكل من يجود به درب الجنينة ودرب البرابرة من جاليات أجنبية.. محترمة، وليت الأمر يقتصر على حلاقة ذقن أو تصليح شعر – هذا إلى أن صاحبنا الرومى كان على نقيض حلاق اندرسن فى إحدى قصصه الذى أثر عنه أنه «يحلق للأرنب فى عدوه» – فقد عرفت بالتجربة أن ضروبًا من المناقشة تنشب ولا تنتهى بين «الأسطوات» والزبائن، حول أمور لم أفقه منها شيئًا ولا يعنينى أن أدرك منها فتيلا.

وربما كان هذا هو السبب الذى طبع فى ذاكرتى بعض الصور التى تزين الحانوت بأعلى المرايا، وهى صور لم أفهم قصتها إلا بعد ذلك بسنوات غير قليلة. صورة تمثل سيدة تلبس ملابس قومية – يونانية كما عرفت فيما بعد – تجلس ساهمة تعتمد رأسها بيدها، بين أطلال أبنية

ذات عمد سامقة متناسقة تشمخ بتيجانها فوق ربوة – البارتينون فوق الأكروبول كما عرفت فيما بعد – وإلى جانب من الصورة جندى من جنود الأفزون لابسى الفستان القصير. وأحسب الآن أن الصورة من آثار حرب تحرير اليونان فى النصف الأول من القرن الماضى، وما تلا الاستقلال من استنهاض الهمم لاستعادة مجد الإغريق الأول بناة الحضارة.

والصورة الثانية تمثل محاربًا يلبس الخوذة اليونانية القديمة ذات العَذَبَة الحمراء، ويركب عربة حرب ذات عجلتين، يقف فيها ويسوق جوادين ركضا، وتجر العربة وراءها، وتجرجر فى التراب، رجلا عاريًا، ميتًا، ربطت رجلاه بمؤخرة العربة، وانطرح جسده فوق الغبراء.. إنه منظر النشيد الثانى والعشرين من الإلياذة، يصف فيه الشاعر اليونانى الأكبر بطل ملحمته أخيليس، وقد انتقم لمقتل خدنه الحبيب فطروكليس بسيف «هكطور بن فريام» ملك طروادة. فقتل «هكطور» وراح يمرمغ جثمانه فى الرغام، وهو يدور بعجلته حول أسوار «اليون» الحصينة.

«وعندما بلغت الأسوار، حيث احتشد الرجال، ارتقت «اندروماك» أحد الأبراج، وألقت ببصرها تتبين ما يجرى فوق الساحة ورأتهم يسحبون زوجها «هكطور» على مرأى ومسمع من المدينة – كانت الجياد تسحبه فى خبب يسير، نحو مرسى سفن الإغريق من آل اخايا»

– الإلياذة: من النشيد الثانى والعشرين.

والمنظر الثالث يصور وداع «هكطور» لزوجته «أندروماك» (فى النشيد السادس) قبل أن يخرج للقتال، فلا يعود. فالوصيفة تحمل الطفل «اسكامندر»، ويسميه الجميع «استياناكس» ، وينفر الطفل من مرآى أبيه بخوذته ودرعه وسلاحه. وربما كان هذا الموقف، وموقف فريام يجثو أمام أخيليس فى خيمته، يستعطفه، ويرجوه أن يسلم رفات ابنه هكطور، هما أروع ما فى الإلياذة، على كثرة ما تحتويه من روائع.

كانت تسليتى الوحيدة إذن، وأنا أحرق الأرَم «الأضراس» غيظًا وتشوقًا لرؤية أهرام أجدادى، أن أجول ببصرى لأشاهد آثار أجداد الحلاق اليونانى.. ولكنى بطبيعة الحال لم أك أعرف فى ذلك الزمان أن تلك الصور تمثل أمجاد أسلافه، ولا أننى أذهب فى ذلك اليوم البعيد لأول مرة، إلى مقابر أسلافى - أو على الأقل ملوك أسلافى - فلاشك أن البون بين خوفو وخفرع ومنقرع وبينى هو البون بين الحلاق اليونانى بقنطرة «خميس عدس» وأخيليس وأجا ممنون وإياس بن تلامون وديوميدس وأوديسيوس ابن لايرت.

وسحبنى والدى من دكان الحلاق.. أخيرًا.. إلى مطعم ! وكان فى ذلك بعض الصبر والعزاء، فأنا منذ الطفولة الأولى أفضل الأكل السوقى على الطعام البيتى، ويشاركنى فى ذلك الصديق رائد القصة المرحوم طاهر لاشين. عندما كان يعقد المقارنة بين كنافة البيوت، وهى تخر ساجدة من السمن والسكر المعقود والمسحوق.. وبين كنافة الكنفانى

تـذوب خفة !.. ولا أنسـى يوم وصف لى فلافـل البيوت وكأنها حجر الرحى، لا فى منظرها فحسـب بل فى رسـوخها على القلب. أو عندما كان يسـمى «لقمة القاضى» البيتى، «طقـة القاضى» ويزعم بأن واحدة منها تشبع محكمة بحالها.

وبعـد العصر، بدأنا رحلتنا الطويلة بين العتبة الخضراء والأهرام، علـى خطين: أحدهمـا كان واحدًا من أول خطـوط الأتوبوس فى تاريخ القاهـرة، نقلنا مـن العتبة الخضراء وفوق كوبرى قصـر النيل القديم، حتى بلغنا كوبريًا خشـبيًا، سمعت اسمه العجيب لأول مرة: الكوبرى الأعمـى (أى كوبرى البحر الأعمى، وهو كوبـرى الجلاء حاليا) وكان بر الجيزة فى ذلك الزمان هيشًا وقصبًا يشبه الحرج الاستوائى، والترام أخضر اللون، ويسـير حتى الأهرام على قضبـان مفتوحة، أى كقضبان السـكك الحديدية. ويخترق شارع الهرم فى وسطه تمامًا، وعلى جانبى الطريق أشجار باسقة وارفة الظلال، وراءها المزارع مترامية الأطراف، إلا وقـت الفيضان حـين يمتلئ حوض كرداسـة بالماء، وبسـير الترام الأخضر على جسر فوق بحيرة واسعة الأرجاء.

وكلمـا اقتربنا من الأهرام كبر جرمها وقد بدت فى مخيلتى أولا فى حجم صورتها على طابع البريد. ثم شـبت عن الطوق قليلا عندما بدأت أراها من بر الجيزة، ثم اكتشـفت وأنا أقترب منها أنها ليست مسمطة ملسـاء، كما تبدو فى صورة طابع البريد، بـل هى صخور بعضها فوق

بعـض طبقات. وعند وصولنا كنا فى «صفار شـمس» فلم يبق لنا إلا أن نـدور حولها وبينها. وحتى معبد أبى الهـول لم ندخله لأن «العرب» كما كنا نسـمى أهل المنطقة، اختلفـوا فيما بينهم عمن يفتح باب المعبد ويصطحبنا، ورأى الوالد أن نعدل عن زيارة المعبد فى سبيل إعادة الوفاق إلى الصف العربى، وربما خوفًا من أن تنتهى خناقتهم على حسابنا.

ولم أعـد لزيارة الأهرام إلا بعُد دخولى المدرسـة الابتدائية، حيث علمونا أن أول ملوك مصر كان اسـمه مينا أو مصرايم، وأنه غير مجرى النيـل.. وأن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار. وهو أسـخف بيت عرفته طول حياتى لأن عجزه نوع من الزائدة الدودية.

ومنـذ ذلك اليـوم البعيد جدًا، وأنـا أحمل فى ذكرياتـى، وأحتفظ فـى ركن من قلبـى بحب عميق لحضارة مصر الأولـى، وحضارة يونان القديمـة. وعندما وقفت ذات يوم بمعبد «آفيـا» على أكروبول جزيرة إيجينـا وتطلعـت من فـوق البحر الأزرق إلـى معبـد البارتينون فوق أكروبـول أثينـا، رجعت ببصرى عبـر البحر الواسـع: بحر الروم، واسـتحضرت فى ذهنى صورة الأهرام وأبى الهـول الرابض فوق ربوة الجيزة، أروع ما يكون بيانًا فى صمته الألفى.

رفقًا أنجشه

كان خطر هوايــة الفنون علينا يتفاوت عند أهلنا: فالشــعر لوثة مقبولة، لقربه من الكتابة والمحفوظات والرسم تسلية بريئة كلعب الكرة والتصوير بالألــوان المائية، وداهية التصوير بالزيت ذات تكاليف وأعباء لا يبتســم الأهل لهــا. ونقترب من منطقة الخطر عندما نهــوى التمثيــل - برغم صلتــه بالكتابة والمحفوظــات. ولكن الطامة الكبرى كانت غواية الموسيقى.

وقد تنقلت فــى صغرى من اللعب الميكانيكيــة «والعجلة» الثلاثية إلــى الكرة ، والتصويــر الفوتوغرافى - كاميرا براونى بثلاثين قرشًــا - والعــرض الســينمائى: لا أراك اللــه ذلك الصندوق الصفيح الأســود يضاء بمســرجة بتــرول، وله فيلم واحد لا ثانى له، يدور على نفســه كقواديس الساقية، ويعرض «قصة» طفل جلس على حافة جدول يصيد السمك بسنارته، فى حركة دائمة، يلقى السنارة، يرفع السنارة، يلقى السنارة، وهكذا«آد بريتيوام» .

وابتســم الوالد لمحاولتى الرسم بالحبر الشينى أو الفحم الكونتيه، أو بالألوان المائية. حتى إذا ما حم القضاء، وطالبته بثمانين قرشًــا ثمن أول كمنجة لى بقوسها، دخل فى دور «الحمرأة - أقصد الحمرقة: مش ناقصنا إلا ده، عاوز تطلع آلاتى تدور مع السكارى والمساطيل».

السكارى وعرفناهم، إما الساطيل فقد تَسَاءَلَتْ نفسى من يكونون؟ ولم أجسر على الاستفهام، واكتفيت بالظن بأنهم نوع أضل سبيلا من السكارى، وإن كانوا أرفع مكانًا، لاسيما وأن اسمهم فيه تنغم فخم كأساطين وأساطيل.

وبرغم ذلك كان الوالد أوسع ذهنًا من طالب بالمعلمين المتوسطة كان يدرس خصوصيا لشقيقين من زملائنا، فعز على حماسه وتفانيه فى مهنته أن يبعزق جهده على زَوْلين (شخصين). وحشد فصلا كاملا من فريق الكرة الذى يلعب مع الشقيقين فى حوارى البغالة. وشاء لى سوء الطالع أن أكون ضمن الفريق، فحاولت التملص ادعاء بأنى على الهامش - احتياطى فحسب - ولكن الأستاذ الطالب بالمعلمين المتوسطة لم يكن ممن يأخذون بالظروف المخففة، ويكره أن «يثير» عليه التلاميذ. وكانت دروسه نصفها علم «كل شن كان»، والنصف الآخر خطب رنانة فى الحث على الفضائل، والتمسك بالفرائض. وكان أيسر على نفوسنا منها أن يقضيها فى تقريعنا المباشر، وتوقيع عقوبات تفنن فى تصورها وإخراجها تفنن السينمائيين.

علم ذات يوم أننى أرسم بالفحم فما كان منه إلا أن حضر إلى منزلنا، قاطعًا المشوار من البغالة إلى فم الخليج على رأس وفد من الفصل البارد المرتجل الذى حشده بالزور وهواية التدريس، ليرى نموذجًا من رسوماتى. وكنت قد شرعت فى نقل صورة للملك لويس الرابع عشر، وانتهيت من «باروكته» الجعداء، وشاربه المفتول، والحذاء

ذى التوكة، وطرف السروال ذى الفيونكة. فطرت من الفرح، وطلعت أدب، ونزلت أدب، ومعى فرخ «الجرامون» الكبير بطيته الأسطوانية، سلمته للمدرس المتحمس. وحولنا الزملاء يبتسمون زهوًا، ويعجبون مقدمًا بنبوغ واحد منهم على الأقل. وبدأ المدرس يفرد طية الفرخ متأنيًا، وعلى وجهه ابتسامة عذبة، حسب حكمى الساذج، وصفراء تبعًا لما تعلمت فيما تلا من الزمان، بل شيطانية بعد ما رأيت أشباهها على المسرح الغنائى تزين وجه إبليس المدعو مفيستوفيليس.

سألنى: أنت يا فوزى «صحيح اللى رسمت ده». وأجبت فى تواضع.. ومسكنة زائفة أيوه يا فندى !

- عفارم، عفارم ! وفى ثقة واضحة حسبما علمتنى السنون، أخذ يمزق الفرخ بالطول، ثم ضم نصفيه ليمزقهما سويًا بالعرض، توفيرًا للجهد والوقت.

الواضح لى الآن أن أهلنا عمومًا كانوا يعتبرون هوايتنا لبعض الفنون أمرًا ذا خطر. لا بأس أن يلعب أولادهم الكرة ويركبوا حتى «الموتوسكل»، ويذهبوا إلى السينما والسيرك. أما أن يحبوا الموسيقى - أبشع الهوايات عندهم -. فكان ذلك يشكل خطرًا داهمًا، من قبيل الخطر الذى يتهددهم عندما يحتجز الجيران رفيقات ألعابنا وراء الحجاب والنقاب، فتتحول وسيلة التخاطب بيننا إلى نوع من التلغراف الهوائى عن طريق النوافذ، من خلف الشراعات المواربة.

إحساس صادق من الكبار بأن الفن شيء ملء القلب والروح.. مثل الحب والهيام.

أية سعادة تفعم نفسي وأنا أرى أطفال اليوم وغلمانه يمارسون هواياتهم كلها بإشراف أساتذتهم وتشجيع أولياء أمورهم.. وأمورنا.. وهذا برغم الخطيب المفوه الذى لعننى يوم جمعة من جمعات ١٩٥٦ عندما أهبت بإنشاء مدرسة للباليه، وبصرف النظر عما حدث فى ثلاثينات القرن عندما شرد وزير للتقاليد - كيف فاتهم حينذاك أن ينشئوا وزارة للتقاليد، لا أدرى - رهطًا فاضلا من أساتذة معهد فن التمثيل وطلبته وطالباته.. صيانة للأخلاق، وصدوعًا بالأوامر والنواهى، ونأيًا بهم عن مصارع الشهوات.

ولقد وقفت فى الصيف الماضى على شاطئ البحر فى بلطيم أتأمل متحفًا رمليًا أقامه تلميذ على حافة البحر من الرمال المبللة، وأحاطه بسياج من الليف. كان متحفًا يمثل عقلية العصر أكمل تمثيل: لم يكتف الفتى بتمثال فتاة مستلقية على الرمال وصياد أم الخلول، بل صور مفارقات عصره فى تمثال للجمل، سفينة الصحراء، إلى جانب الطيارة النفاثة. وتمثال للمركب الشراعى، فى مواجهة عابرات المحيط، والطرادات. وقد عجزت عن فهم تمثال منها، فابتسم الفتى ابتسامة الأستاذ أمام تلميذه الخائب، وتنازل يقول معاتبًا: هذا صاروخ جاجارين !

سلمت على الفتى الفنان، وقد هنأته بكلمة «عال» واستأنفت مسارى، وإذا كلمة «عفارم» تصعد من أعماق الذكرى تضيئها ابتسامة صفراء،

وتصطحبها ضحكة واثقة. وقد نسيت، أو تناسيت خجلا، أن أحدثك بالصفعة المدوية التى نزلت على خدى من ذلك الأستاذ المحترم، علمت منها أن احمرار العين «طق الشرار» من العين ليس صيغة من صيغ البلاغة، عقابًا لى على هواية الرسم، وإن كان عقاب لويس الرابع عشر حينذاك أقسى على نفسى، وربما على لويس أربعة عشر نفسه، لأن ما حاق به كان أشد مما نزل بحفيده لويس السادس عشر فى ميدان الثورة. لقد أعدمه المدرس الخصوصى على طريقة المماليك، وهى التوسيط، ثم قسمه أربعًا وكأنه ينوى أن يوزع أشلاءه على أربعة مفارق.

أثارت هذه الذكريات إجابة صغيرة بليغة، مخيفة، طالعتها منذ أيام، صدرت عن مراهق يمارس هواية فنية ويبرع فيها:

– هل تؤثر هوايتك على متابعة دروسك ؟

– بعكس ما تظن، فهى تحضنى على مذاكرة دروسى، لأبلغ هدفى الفنى على أساس متين من الثقافة العامة.

– وما موقف والدك من هوايتك ؟

– كان يحاربها فى بداية الأمر، ولما أخذت هوايتى تُدِرُّ علىّ أجرًا، بدأ يشجعنى، وتطور إلى أن أصبح يؤنبنى إذا أهملت هوايتى بعض الوقت.

آه لو كان الفقر رجلا ! فلست مستعدًا أن ألوم هذا الوالد. ماذا يكون غرضه من إرسال ابنه إلى المدرسة إلا أن يهيئ له وسيلة لكسب عيشه. فإذا تحقق له ذلك أيام التلمذة، فأى بأس من ذلك ؟

وأهلونا لم يكونوا أثرياء.. وكانت هواياتنا تكلفهم مالا. وأخشى أن أقول فأظلم الجيل الحاضر: كان أهلونا يخافون علينا من بعض الهوايات. أما إذا بلغ امرها أن نكسب من ورائها مالا، فقل يا رحمن يا رحيم. كان ذلك ضعة ما بعدها ضعة، وهوانًا يفوق كل هوان. كانت مبالغة فى الحالين، ومغالاة من الجيلين ولكن.. رفقًا انجشة بالقوارير !

غرام فى السيرك

هذه قصة من صنع الخيال إن شئت وإن شئت فهى من ذكريات الطفولة وما بعدها قبل المراهقة. فأين الحقيقة من الخيال؟. ومن يضمن لى ولك أن تكون من قبيل هذا أو ذاك ؟ فلنوجه عنايتنا إلى صياغتها كأقرب ما تكون إلى الواقعية، ولعل الشعر فيها ينأى بها إلى أبعد من الحقيقة.

بدأت وقائعها فى السيرك الوطنى تعلق الحاج سليمان، يجيئنا كل عام فى مولد السيدة زينب، وينصب عمده وأساقيله وخيامه فى باحة من باحات الحى.

وكان ارتيادنا للسيرك - نحن تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية بشارع مراسينة - يغير من رتابة ملاهينا تغييرًا جذريًا. فما كان أقلها فى ذلك الزمان البعيد! ! ! أهمها السينما فى مطالعها البدائية بالقاهرة، ثم لعب الطرّة والكرة. إلا حينما تمتد ملاهى المولد على طول شارع السد البرانى، فيتحول الشارع - وكان يتوسطه مقام سيدى السدى، قبل أن ينتقل إلى مكانه الحالى عند أول شارع مدرسة الطب - إلى استعراض الفولكلور المصرى بأنواعه ! خيال الظل والقرة جوز، وملاعبى الحيوانات العجيبة : النص سمكة

والنص بنى آدم (سمكة قشر بياض عظيمة تتكلم لدى خروجها من الماء.. عن طريق بطن صاحبها الفنتريلوكى) ومصارعة (بالسين فى لغتهم) حيوان (كانجرو) يصفه الملاعب بأنه له ذيل تمساح، وجسم أسد، ورأس حمار، والشيخ عبد الله، وصل من بلاد الهند والسند رأسًا بلا جسد، يتكلم بلسان عربى فصيح، يشرح حاله، وما يأكل وما يشرب. فيسأله المُلاعِب كيف تنصرف فضلات طعامه وشرابه ؟ «يطلع على وجهى عرق» (بالقاف الساكنة). وكل هذا ليس من الفولكلور، وإنما كان هناك المداح والراوى والشاعر بالربابة والأدباتى والحاوى، وجماعة المحبظين والمغذلكين، ممن يجمعهم الجبرتى فى «طائفة الخردة» .

كنا نرتاد تلك الألاعيب لامًا، أما السيرك فكان لازمتنا ليلة الجمعة من كل أسبوع، نشاهد الحاجة مريم تمشى على الحبل بالزانة، والأسطوات على وفايق إخوان يرقصون على الحبل والسلك بدون زانة والبلياتشو عثمان بطرطوره الأبيض ووجهه أبى دقيق، والعفريتة المشغولة بالورد الجورى.. يقع من على الحبل، أو السلك، ويفترش البساط الأحمدى كالزكيبة ثم ينهض ويؤدى حركة الإعجاب الذاتى بيديه وذراعيه، كما يفعل عادة رجال السيرك، ويضيف إلى ذلك قوله «براوة عليّه» ، وآكل النار، والخواجة ماركو لاعب العقلة الأرضية، وعاكف البهلوان، وزنوبة بهلوانة العقلة الطائرة.

والفارسة جليلة تركب الحصان وهى واقفة على ظهره وهو يدور حول الحلبة، تطير فى الهواء وتتشقلب وكأنها فوق أرض منبسطة. وأخيرًا الفصل المضحك بطله «الجن نار» «الجنرال» وقد نسيت أنواع المقالب التى كانت تنصب له، وغير ذلك من طرائف تبهرنا تحت أضواء «كلوبات الجاز ذات الرتينة والوش»، وعلى صوت موسيقى نحاسية تعتلى منصة خاصة. كم كان سنى حينذاك ؟ لا أذكر بالضبط لأننى لا أعرف متى عشقت فتاة السيرك. هل كنت فى السنة الثانية الابتدائية أو الثالثة. وفى كلتا الحالتين لا يمكن أن أكون جاوزت الثانية عشرة فالمؤكد أننى انتقلت إلى المرحلة الثانوية فى الثالثة عشرة من عمرى.

أقول عشقت بكل بساطة، مثلما أقول لعبت الكرة البلدية المسماة «قره وسنو وكحكو إلخ» مع أن الأمر كان أعمق من هذا بكثير، كان هيامًا ووجدًا بحق. وموضوعه لاعبة السيرك الإيطالية أماليا من أسرة فانوتشى الأب والأم والابن والأخت الكبرى ليزافانوتشى. ولا حاجة لنا بوصف ألعاب آل فانوتشى، أو جمال ليزا وقد اكتملت أنوثتها وكان وجهها حقيقًا بأن يقول للقمر.. إلخ.

أماليا كانت فى سنى، وربما أكبر قليلا، كوكبًا دريًا بعيد المنال على غلام فى سنى وحتى على من هم أكبر من سنى.

ويمكـن أن تنتهى القصة هنا بحـب دون أمل، وننصرف إلى وصف آلام النـوى والبعـاد والجـوى والسـهاد، وترقب يـوم الخميس كأنه يوم الميعاد.

كان الصبـى من خشـب الأشـراق، سـريع الاحتراق، راح يسـلك طريق المسـتحيل للتقرب من الحبيبة، والمسـتحيل فيما رأى لا يحققه إلا السـحر، والتماس المعونة... من ميمونة، وخادمها دهنش. وصنعة السحر مرصودة فى كتب صفراء، تباع عند الكُتُبِيَّة بالحلوجى. فاقتنى منهـا كتابًـا أو كتابين من مؤلفات أبى معشـر. طالعها مـن أولها إلى آخرهـا دون أن يبلـغ بغيته. أنَـى له بقلب هدهد يتيم أو ديك أسـود لا غباشـة فيه؟ وما هو حجـر دم الأخوين يبخر به مع عين العفريت؟ وكيف يجسـر على ولوج قبر مفتوح يحمل منه عظمة ميت ويخرج من القبـر بخطى القهقـرى، حين يواجه عفريت الميـت إذا تصادف وطلع لـه ؟ وإذا تمكن - فرضًـا - من دفن بيضة بين أربعـة مفارق، بعد أن «يُعزَم» عليها وينقش التعاويذ فوق قشـرتها.. بدم غزال، فكيف يحفر عليها بعد أربعين يومًـا، ويحملها إلى مكان خرب، ثم يفتحها ومعه سـكين حاد يذبح به الكتكوت الفصيح قبل أن يصيح، وإلا فالغلام هالك لا محالة إذا هبشه كتكوت الجن:

هذا وكثيـر غيره طالعه فى كتب السـحر والشبشـبة تحت أبواب المحبة والقبول وانتهى إلى الوسيلة الوحيدة الميسرة:

كانـت وصفة لا تكلف إلا جهدًا – قراءة سـورة الجن على وريقات عادية (وليست من الكاغد) يخط على كل منها حرفًا من حروف الهجاء حتى تكتمل الأبجدية، وينقش على كل ورقة اسـمه واسـم أمه واسـم المحبوبة والسـيدة والدتها، وبمـا أنه لا يعرف اسـم المحترمة فقد اكتفـى بكتابة أماليا بنت فانوتشـى معتمدًا على أن الجن لن يفرق بين اسم الذكر والأنثى فى تلك اللغات الأجنبية.

ويكتـب تعويذات بلغة غير مفهومة لعلها السـريانية يجىء فيها اسم شمهورش بن مقارش والغالب أنه سلطان الجن.

وتصور أن يقرأ الصبى سورة «قل أوحى» كاملة بعدد حروف الهجاء ومـع أنه كان قد نسـى الكثير مما حفظه عن ظهـر قلب من كلام الله، بكتّاب سـليمان جاويـش، والكائن فى أول الخرنفش، فقد اسـتعادت ذاكرته السـورة بعد تلاوتين أو ثلاث، وواصل تسميعها تسعا وعشرين مرة، حتى جف حلقه، وكاد يسقط إعياء إلا أن أدركته رحمة ربه.

والوصفة تقـول بحرق الأوراق كلها، مع ترديد تعاويذ سـريانية، وحمل الرماد إلى أعتاب المحبوبة.. ويكفى أن تخطو فوق الرماد، حتى يجمع الله بين الشتيتين بعد ما.

ذهب إلى بيت آل فانوتشـى، فإذا غلمان الجيران يلعبون فى باحة قائمـة أمام منزل أماليا، والبيـت المجاور. لم يجرؤ على أن يذر الرماد أمامهم، فهى حركة غير معتادة أن يفرش الإنسان عتبة عريضة برماد

ورق محروق. وراح يتحكك بهم ويشاركهم ألعابهم وكان بطلا من أبطال لعبة العصفورة.

ولا يبتئسن القارئ إن جهل أمر هذه اللعبة المشهورة، لأن معرفته أو جهله بها لن يغير من مشيئة القدر.

تناول المضرب الخشبى وأطار العصفورة لفريقه، حتى كادوا يبلغون بها سيدى الطيبى فى اتجاه الجنوب الغربى، وأطار الفريق الآخر العصفورة حتى أعادها إلى قواعدها، ثم دفع بها الصبى فى اتجاه الشمال الشرقى حتى كاد فريقه يبلغ بها سيدى الحبيبى. ولم تكن الطرقات فى تلك الأزمان الغابرة تعرف سوى عربات الأجرة والكارو وحمير السوق فى الليل بعد توقف عربات سوارس والترام. أما السيارات فكانت كالكبريت الأحمر، لا يركبها سوى البرنسات والبرنسات يسمعن طول حياة أسرتهن، حتى انصرام حبلها، بالأسياد السد البرانى والطيبى والحبيبى فلم يكن من المنتظر أن تعبر سياراتهن بالحى العتيد.

كسب فريقى، واعترف الفريقان لى بالسبق.. كل هذا وقبضة يدى اليسرى منضمة على رماد التسعة والعشرين عفريتًا الموكلين بقيادة المحبوبة حتى تجيئنى منقادة تجرجر أذيالها.

وانصرف الغلمان، وشرعت فى ذر الهباب، فوق أعتاب الأحباب.. فرفض أن يذر، وقد تحول من طول الحبس إلى قرص صغير متجمد.

فركته فما استطعت، يساورنى الشك فى احتفاظ الشبشبة بقوتها الذرية. توقعت أن الجن سوف يتكعبل وهو منطلق من لبخة الرماد بأقدامه المشقوقة كحوافر الماعز. وربما لصقت بالرماد الندى كما يلصق الذباب بأوراق الصمغ التى كانت تستعمل فى أيامنا بدل الفلاى توكس.

تلبثت مع غلامين من أهل البيت المجاور لمسكن أماليا فانوتشى، وقد أطلت علينا سيدات الأسرة يستغيثين الصغيرين فأشار الأكبر وكان فى مثل سنى، إلى الصاحب الجديد، وأمرت كبيرتهن أن يصعدا ومعهما الغلام الذى كان أنا. وكعادة السيدات أخذن يسألن عن اسمى واسم أبى وصنعته وأين أسكن وبأى مدرسة أتعلم. واصطفتنى الأسرة، وغالبيتها سيدات وبنات كابن من أبنائها.

وكانت الأسرة، تبعًا لسماحة الطبع المصرى، قد اصطفت أسرة فانوتشى تجئ كل مولد، وتقطن المنزل المجاور، فكانت أماليا واحدة من بناتها. وأصبح سطوح البيت ملتقانا نحن الصبية والبنات، فى «التبات والنبات» كما يعلم العارفون بالأمور.

وجاء لقاء الغلام بصبية السيرك سابقًا على النظرة والابتسامة والسلام، كما جاءت القبلات فى وضعها الصحيح من عالم البراءة والطهر.

وأصيب الصبى ليلتها بحمى، أشبه بدور الملاريا، فلم ينم إلا قرب الفجر غير مصدق لما جرى فوق السطوح بينه وبين تلك التى كان يراها

مســاء كل خميس بالمايوه الأبيض، والبلوزة المرصعة بالكلفة. والشعر الفاحم مجموعًا فى «بندور» وخصلات لولبية وكلوبات الرتينة تنشــر أضواءهــا الفضية على الأذرع الطويلة البضة. والجيد الجميل، والوجه الأقمر.

والموسيقى النحاســية تعزف لحنًا على إيقاع عرفته فيما بعد باسم إيقــاع الفالس ثم تســكت فجأة عندما تتأهب ليزافانوتشــى للقفز على اللوحة المقامة مثل قبّ الميزان على كرســى هرمى الشــكل فى وسطها (والأصــح أنه على صورة منشــور هندســى) وهنا ينقر ضــارب الطبل العســكرى الصغير نقرات ســريعة تثير التأهب فــى رهبة، لطيران أماليا فى الهــواء، عندما تهبط أختها ليزا على طرف اللوحة المرفوع. وتــدور أمامنا فى الهــواء «شــقلباظًا» واحدًا لتنزل واقفــة على كتفى أخيها، «المشــعلق» فوق كاهل الســنيور فانوتشــى. وفى المرة الثانية «تتشــقلب» أماليا فى الهواء دورتــين، لتنتهى واقفة على كتفى الأب وحده..

وتنطلق الموســيقى بلحــن المارش الحماســى يغطيــه تصفيق المئات الجالســين على ألواح خشبية باســتدارة «الصوان»، فيما يعرف بأعلى التياترو. وقد يفزع غلام من نومه فيسقط من مقعده إلى الخلف أو الأمام، وتصفيق البكوات والســيدات فى اللوج المواجه للوج الموســيقى، وغلمان المدارس بالدرجة الأولى حول الحلبة (بقرشين صاغ).

وبعد «نمرة آل فانوتشى»، كانت أماليا وليزا تدوران حول الحلبة، وتصعدان إلى اللوج لتبيعا صور الأسرة مجتمعة، بملابس البهلوانات، وصورة الأختين، تستند كل منهما إلى الأخرى فى تكوين فنى.

وهذه هى الصورة التى لم يحتفظ بها الغلام العاشق طويلا، لأن الشيخ «ش» ضبطها فى كراسة التطبيق، أو كتاب «الفوائد الفكرية»، فاستولى عليها، وأخرجنى لأقف ووجهى إلى الحائط.. بين خريطتى آسيا وإفريقيا.

واستمرت العلاقة طوال بقاء السيرك الوطنى فى الحى، حبًا عفيفًا بين التلميذ الصغير وصبية السيرك، وتواعدا على اللقاء فى المولد المقبل، إن شاء الله.

وانتقل الغلام إلى الفرقة الأعلى، فى أول القائمة، وحل موعد المولد، وعادت أسرة فانوتشى مع السيرك كالعادة. وهنا خَبَرَ الصبى حقيقةمن حقائق الحياة والفسيولوجيا، لم يفسرها إلا بعد سنوات من تلك الوقائع، وهى أن الفتاة تنمو مبكرة عن الصبى، فقد عادت أماليا إلى جيرانها شخصية جديدة ناميه، والتلميذ كان غلامًا.. متخلفًا.

كانت أماليا مؤدبة معى، ذلك الأدب الأوربى البارد كالثلج. وكان الواضح من حديثها أنها تنظر من عليائها، وقد اكتملت أنوثتها، إلى صبى تقدم من لعبة العصفورة.. إلى الكرة.

بعد أعـوام طويلة، وكنت فى أوربا حدثتنى زميلة سويسـرية عما لاحظتـه فى مدرسـتها الابتدائيـة بزوريخ أو بال - وكانت مدرسـة مختلطـة - من أن البنات متقدمات جنسـيًا علـى الغلمان. ففى حصة «الكاتشـزم» وهو درس الدين يلقن عن طريق الأسـئلة والأجوبة، كان المدرس يسأل الفصل سؤالا من الإنجيل:

ماذا فعل سـيدنا زكريا وزوجته اليصابات ليرزقهما الرب بطفل فى شيخوختهما؟ وكانت الإجابة التى يرددها الفصل كله: كانا يصليان !

تقول زميلتى السويسرية: كان الشطر المذكر من الفصل يردد الجملة التقليدية بجدية وإيمان.

أما الشـطر المؤنث فكان يردد الكلمتين: «كانا يصليان» ثم تتضاحك الفتيات فى أكمامهن. أما إذا أدار المدرس ظهره «فهات يا كر » !

كشك الموسيقى

لا أدرى

إن كان كشك الموسيقى قائمًا أو راح فى خطوط التنظيم؟. فحديقة الأزبكية التى حلت فى تاريخنا الحديث محل بركة الأزبكية، والتى أنشأها ونظمها فى أواخر حكم إسماعيل، مسيو باربيه، مدير حدائق باريس، ابتلعتها حاجات العمران وازدحام حركة المرور، وكان قضاؤها أمرًا مقضيًا، تلك الحديقة التى عرفناها فى أخريات أيامها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال، فندور فيها نقضم أطرافها، وننتف ريشها، ونقتلع أشجارها، حتى انتهت إلى أشلاء خضراء وسط خضم من السيارات والأتوبيسات.

نعود بالذاكرة إلى بضع سنوات عندما بدأت مصلحة التنظيم القديمة تتحدث عن إزالة سور الحديقة العالى، واستبداله بسور قليل الارتفاع، وعندما ألغت رسم الدخول. ولم أك فى ذلك الزمن البعيد أدرك بعد سبل تحايل المصالح العامة على الرأى العام، فحملت تلك الإجراءات على محمل من الديموقراطية التى لا تكلف الإقطاع وحكوماته إلا قليلا. ثم نسمع بعد هذا حديث فتح ممر، أو متنفس لحركة المرور، ويختفى بالطبع نتيجة لهذا أشهر باب للحديقة، وهو الباب الغربى.

وتحل الطامة الكبرى عندما تقترح إحدى مصالح الحكومة إقامة بناء لنها وسط الحديقة. وكانت تلك ضربة المعلم، «نوكاوت» للحديقة التاريخية. وعندما تتجه إلى ميدان الخازندار، أرجو ألاّ يفوتك تقديم فروض الإعجاب بذلك البناء الشامخ الذى وضع حديقة الأزبكية فى جيبه الخلفى، وهو واحد من أبنية ثلاثة أو أربعة تحسب عندنا من قبيل ناطحات السحاب، ولو أن البناء الذى أشير إليه لم ينطح سوى الحديقة العجوز، فخرت تحت أقدامه صريعة.

ومع ذلك فلا أكتب هذا لأبكى على الطلل البالى «بين الدخول فحومل». فليس ثمة أطلال والحمد لله، بل عمارات شاهقة وحارات فسيحة، وخضرة سقيمة هنا وهناك، وأشجار شائخة تنفلق عن أرصفة، وتظلل محطات «نقل عام» إلى كل الجهات. وتمثال وطنى عظيم يبدو وسط هذه الحركة الدائبة التى نجحت فى أن تصيب بالدوار نصبًا من البرونز.

إنما أكتب عن كشك حديقة الأزبكية قبيل ثورة سنة ١٩، وفى السنوات التى تلتها مباشرة.

عرفت طفولتنا ومراهقتنا الحديقة الشعرية فى كل عصر من أيام الجمع، بسبب ما يقدم بالكشك من موسيقات عسكرية. ولم تكن نسميها كذلك، لأن الفصحى لم تكن بدأت زحفها بعد على لغتنا البلدية. فكنا نسميها «المزيكة الميرى»، وهى تسمية غنية بالمعانى

الخفية: من أنها شـــيء مهندم فخم، بالنسبة لفرق الموسيقات الأهلية، من مزيكة حسب الله أفندى، وغيرها.

وكان حول الكشك المستدير – أو الجوسق الدائرى، بتعبير أبلغ وأدق – عدد من الكراســى تؤجر بثمن زهيد، لهواة الاستماع. ومن لا يحتكم منا على دفتر شيكات، كان يكتفى بالدوران حول الكراسى، أو الوقوف خلف آخر صفوفها، ليســتمع إلى أدوار «يا طالع الســعد» و «العفو يا سـيد الملاح»، و «محمد لابس سـيفه» ، وقد حولها موسيقيون – لاشك فى براعتهم وقدرتهم – من أدوار غناء التخت، إلى الآلات النحاسـية والخشـبية، دون أن يعبئوا بما فى أصولها من ثلاث أو أرباع النغمات. ويمكن القول بأن تلك الموســيقات «بططت» أسماعنا الشرقية الرقيقة، وعودتنا فى ســن مبكرة على نغمات صريحة لا تعرف إلا المقام الكامل ونصفه «هل تعرف أنت مثلا أن العشرة خردة هى ربع المليم ؟».

كان الصــول عامر غزال، قائد الفرقة العســكرية، حائزًا لاحترامنا وحبنــا، عندما يعزف المؤلفــات المذكورة وأشــباهها. أما حين تتخلل البرنامــج مقطوعــات «إفرنجية» ، فقد كنا نحــس ببعض القلق، فعدم الانســجام، ونعزو هذا لغرابة تلك الموســيقى على أسماعنا، ومالها من ضجيج ودربكة.

إلى أن اكتشفنا فيما بعد السبب الحقيقى، وهو ضعف الأداء لموسيقى تتطلب دقة متناهية فى عزفها، حســب اختلاف الخطوط اللحنية بين

شتى آلات الفرقة. وعلمنا بالصدفة أن فرقة بريطانية تحتل الكشك عصر الأحد، ولم يكن يضيرنا كثيرًا أن نستمع إلى موسيقى المحتل، فاحتلال كشك بالنسبة لاحتلال بلد بأكمله، لا أظنه كان ينكأ جرحنا، لاسيما وأن الجوقة البريطانية كانت تترضانا فى ختام حفلاتها بعزف السلام المصرى، أو السلام الوطنى - وكان هذا اسمه من قديم ولم يعرف بغيره إلا بعد أن أوغلت الرجعية فى حياتنا وسيطرت الملكية على أقدارنا.

الفرقة التى كنا نذهب لسماعها عصر كل أحد كانت «الولش باند» وكانت - وأظنها ما برحت - من أحسن موسيقات الجيش البريطانى. ومرد ذلك إلى أن شعب بلاد الغال (ويلز) أكثر شعوب الجزر البريطانية موسيقية، بطبيعة نشأته، وتبعًا لتقاليده العريقة فى الغناء الفولكلورى أفرادًا وجماعة، والعزف على الصنج الولشى (الغالى) القديم.

وأمام فرقة ويلز هذه أدركنا لأول مرة معنى القيادة الموسيقية، فلم تكن مجرد تهويش بعصا، يبدو للناظر كأن القائد يؤمن على ما يجرى من عزف، ولا يقوده.

كان قائد فرقة الغال يُجلس موسيقييه فى دائرة تستند إلى الحاجز، ويقف هو بأعلى الدرج الذى يرقى إلى أرض الكشك. وصوت الآلات واضح الرنين، وآلات تكف عن العزف هنيهة، ثم تدخل بدورها كرجل واحد، ولكل مجموعة من الآلات ألحان تميزها عن ألحان المجموعة

الأخرى. واللحن الواحد تداوله الآلات فيكتسب من كل آلة لونًا جديدًا. ويتشابك كل هذا دون إخلال أو هرجلة، وفى تو افق لحنى تألفه الأذن الشـرقية بعد فترة بسيطة، دون أن تعرف اسمه (وهو الهارمونيا). ثم أنت تحس بأن نجاح النظام معقود بطرف عصاة القائد فى يده اليمنى، وحركات ذراعه ويده اليسرى. العصاة منتظمة الحركة كبندول الساعة، إلا حين يريد لها إبطاء أو تعجلا يتطلبه الأداء، واليد اليسـرى تتكفل بشىء آخر غير رتابة الإيقاع، فهى التى تتحكم فى التعبير الوجدانى، ما بين أصوات تهمس همس العاشقين وسط الليل، وبين جهورة قد تبلغ هزيم العاصفة، وقصف الرعود.

تعلمنا حول كشـك حديقة الأزبكية بعض مبادئ الموسيقى المتطورة وأسـاليبها، أى مقـدار ما يدركه المرء بحسـه، وملاحظته المباشـرة، بعينه وأذنه، والسـماع أهم، لولا أن النظر كان يطالع فى حركات قائد «الولش باند» كثيرًا مما يجرى فى الموسيقى. كانت حركاته جميلة فى تناسقها، كأنها حركات الباليه، معبرة فى إيضاحاتها.

وانفجـرت ثورة ١٩ ذات صباح مـن مارس، فتوقف العزف وطارت الفرق الموسيقية كلها. ولا أذكر متى عادت الحياة إلى كشك الموسيقى – إن كانت عادت ! – فقد شببت عن الطوق، وعرفت طريقى إلى الحفلات السـمفونية بقاعتى الكورسـال وسـينما كليبر، يقود الأولى إدجاردو بونومى الإيطالى، والثانية ميشيل بوليا كين الروسى.

إنما كنت أشاهد الكشك الخالى، إلا من أطفال تلهو. كلما جلست إلى قهوة «سانتى» التى تواجهه، وهى القهوة التى لم نكن نجسر كغلمان الاقتراب من درجها، فهى مرتاد الكبار، أى من هم أكبر منا سنًا، لأن حكاية الثراء والوجاهة لم تدخل فى حساب توجسنا من الاقتراب. الكبار فى صغرنا كانوا يمثلون السيطرة علينا فى كل صورها: فى البيت والمدرسة... وحديقة الأزبكية.

وتحول كشك الحديقة، عقب هدوء المياه السطحية للثورة، إلى ما يذكرنا بقاعة النقابات فى الدول الاشتراكية. ثورة ١٩ كانت فى ظاهرها وباطنها حركة ضد المحتل، ثم تكشفت عن باطن أبعد غورًا. كانت أيضًا حركة تحول اجتماعى كبير. بدأت فى شكل تجمعات مهنية تطالب بحقوقها من شركات الاحتكار التى كانت تسيطر على كثير من مرافق البلاد. طالع صحف ذلك الزمان، لتعجب كيف أصبح لكشك حديقة الأزبكية «أجندة» بالاجتماعات التى تجرى حوله كل يوم:

عمال الترام، عمال شركة الغاز والكهرباء، شركة المياه، التليفونات، عمال الكنس والرش، جرسونات قهاوى عماد الدين، عمال الوفورات العاطلون، شركات السجاير.

هؤلاء وغيرهم من ساقطى «الكفاءة» إلى مستخدمى الدرجة الثامنة على النظام القديم. ومن عاملات ورش الخياطة إلى المطالبات بالسفور،

ومن أرباب المعاشات إلى أرباب السوابق وسكان العطوف للاحتجاج على قذارة حيهم، وسكان الحارات المطلة على الإسطبلات الملكية ببولاق للشكوى من رائحة البهائم. إلخ. . .

هؤلاء أو أولئك مدعوون للاجتماع يوم السبت، أو الأحد، أو الاثنين إلخ حتى ١٢ منه، بجوار كشك حديقة الأزبكية للتداول فى شئونهم، أو للمطالبة بكذا وكذا، أو للاحتجاج على كذا.

ولم يكن للبوليس من تدخل أكثر من ترتيب تسلسل هذه الاجتماعات، والمحافظة على النظام فيها وحولها.

صفحة من تاريخ التطور الاجتماعى فى أول العشرينات تكشف عن تحول الثورة ضد المحتل، إلى المطالبة بالحقوق المهضومة. وأتساءل اليوم – والشك ينهب قلبى – أكانت ما كيافيلية الاحتلال هى التى توصى بغض النظر عن تلك الحركات الشعبية، كى تصرف الناس عن الاهتمام بقضية البلاد الأولى ؟ إذا كان هذا حدث حقًا، فقد فوت الطلبة على المحتل غرضه لأن الطلبة لم ينفكوا فى سنة ١٩، وفى العشرينات والثلاثينات، والأربعينات عن مطاردة الغاصب، ومحاربة عملائه.

ومع ذلك، فإن حقائق تاريخنا القومى فى الثلاثين سنة التى أعقبت ثورة ١٩، وفى السنوات العشر التى مضت على ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢. كشفت لنا عن أمور لم نكن ندركها تمامًا فى فجر

شـبابنا، وهو أنه لا الجلاء، ولا الاسـتقلال بغاية فى ذاتها بل هما أول الطريق نحو التحرر من ربقة الاستغلال فى الداخل ومن الخارج على السواء.

وكشـك حديقة الأزبكية يقوم فى مخيلتى رمزًا لهذه الحقيقة التى تجلـت اليوم واضحة لكل ذى عينـين، ويحس بها كل ذى قلب ينبض بحب أم الحضارات.

ناظر المدرسة الحديثة

مدرسة

أهليـــة، بالمجان، لم تكـــن تتلقى إعانة مـــن وزارة المعارف «التربيـــة والتعليم حاليا» ولا من جمعية خيرية. ليس فيها تُخَتٌ ولا ســبورات ولا طباشير، وإن كان لها ناظر وضباط ورئيس- أى تلميذ أول. مات الرئيس- محمود طاهر لاشـــين، رائد القصة المصرية، وذهـــب الضابط - أندريا غبريال. وأخيرًا مضى إلى عالم الغيب ناظرها - أحمد خيرى ســـعيد، لا أدرى متى، وفـــى أى مكان حتى كتابة هذه الســـطور. كل مـــا أعرفه أن يحيى حقى كتب يرثيـــه أخيرًا فى صحيفة «المساء»، ولم أطالع مرثيته بعد.

لـــم يكـــن للمدرســـة الحديثة مقـــر معلوم ولا أســـاتذة، ولا ســـجل بأسماء تلاميذها: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ سورة الكهف: الآية ٢٢.

كانوا يجتمعون فى كهف ترقى إليه بدرجات خمس أو ســـت. على ركن شـــارعى قنطـــرة الدكة وعماد الدين، يحمل اســـمًا له خطورته فى التاريـــخ الحديث: «قهـــوة راديوم» حيث اجتمع عزيز عيد ويوســـف وهبـــى ومختار عثمان يؤلفون فرقة رمســـيس الأولى. ثم فى قهوة الفن

المشـهورة بجوار مسرح رمسـيس. وعند صالح الشربتلى بباب الخلق، أو فى قهوة الكلوب المصرى بسـيدنا الحسـين، فى ليالى رمضان، وفى «مسـمط» بشـارع محمد على فـى بعض ليالى الشـتاء.. ولكـن مآبهم وخلوتهم.. وتكيتهم مندرة محمود طاهر لاشين بحارة حُسْنِي.

يذهبون شـلة إلى كازينو دى بارى بقنطـرة الدكة يناصرون محمد تيمور وسـيد درويش فى «العشـرة الطيبـة»، وإلى تياتـروا برنتانيا يؤازرون سـيد درويش فى «شهر زاد» أو إلى كورسال دلبانى يشاهدون باليـه «أنـا بافلوفـا»، أو يسـتمعون للحفـلات السـيمفونية ولعزف كبـار العازفين، حيث يجلسـون أو يقفـون فيما كان يعـرف بالمنتزه «البرومنوار». أو يتشـعلقون فى أعلـى التياتروا بالأوبرا – فيما كانوا يعرفونه بالسـماء السابعة، قبل أن يسمعوا بأن هذا المكان الرفيع اسمه عند الفرنسـيين «الجنة» – ليشـاهدوا ويسـمعوا الفرق الغنائية التى وفدت على مصر بعد الحرب العالمية الأولى.

لـم يطلقوا على جماعتهم اسـم «المدرسـة الحديثـة» تزعمًا ولا تحديًا وادعاء، بل تندرًا وسـخرية بأنفسـهم وبتعاليمهم الثائرة. فهم مدرسة السخرية بالحياة البرجوازية الرتيبة. اشتراكيون دون انضواء تحت لواء، يتابعون أخبار ثورة لينين فى سنواتها الأولى، وليس فيهم شـيوعى واحد، إنما هكـذا! حبًا فى الثورات.. لله فى لله!

ناظرهم الأول والأخير: أحمد خيرى سعيد، عاد من فلسطين حيث عمل طبيبًا عسكريًا لفرقة العمال المصريين المصاحبة لجيش «اللنبى»، وقد اعتملت فى نفسه ثورة عارمة على المحتلين المغتصبين وما صنعوا بأهلنا الفقراء فى الطريق إلى بير سبع وبيت المقدس. ولم يعد لدراسة الطب، بل انضم إلى صحافة «الحزب الوطنى» مؤمنًا بمبادئه.

التلميذ الأول كان أكبر مقامًا: محمود طاهر لاشين، المهندس بمصلحة التنظيم «على سن ورمح» وأصغرنا سنًا وأشدنا طيشًا، طلاب بالمدارس العليا خرجوا من ثورة ١٩ ينشدون الحرية فى كل شىء فعرفوها ممثلة فى شخصية أحمد خيرى سعيد.

مخلصون لما كانوا يسمونه «المثل العليا» فى الفن والأدب. يطالعون ويناقشون الأدب الروسى العظيم قبل الثورة البلشفية، ويبحثون عبثًا عما جاءت به تلك الثورة من أدب جديد، ثم ينصرفون إلى الآداب اليونانية القديمة والإنجليزية والفرنسية والألمانية، إلا واحدًا منهم - حسن محمود - أضاف إلى كل هذا اطلاعًا فى الأدب الإيطالى بلغته، ودراسة لحياة البابوات، والموسيقيين العظماء، وممارسة للموسيقى الغربية. كلهم نشئوا على معرفة قويمة بأدبهم العربى، ينادون بتجديد أنماطه وقوالبه، مع الاحتفاظ بسلامة اللغة، وإن ذهب بعضهم إلى المطالبة بالتحرر من قيود الفصحى فى الرواية العصرية، أو على الأقل فى لغة الحوار. كتب فريق منهم شعرًا «حديثًا»، وعالج فريق

آخر الشعر المنثور – أو النثر المشعور فى لغة المدرسة الحديثة – ثم تحرروا جميعًا من ربقة الشعر المنظوم والمنثور سويًا.

مجهولون مجهلون، ينزعون فى انطلاق فكر عجيب نحو التجديد فى شتى مناحى الحياة المصرية، وينفعلون بتاريخ بلادهم كله: فرعونيًا، وقبطيًا، وإسلاميًا.

يشنون حملات للإصلاح فى صحف هزيلة منزوية، وكأنهم يحاربون عمالقة فى صورة طواحين هواء. كأن يحملوا على استعراضات نجيب الريحانى وأمين صدقى الفرانكو – آراب مما كانوا يعتبرونه ابتذالا غير جدير بأمة ناهضة – مثلما يفعل ثائرو اليوم بالأغنية وفن الأغنية. ويسخر منهم الريحانى سخرية العملاق الخرافى فى أساطير اسكندنافيا: يهوى عليه كبير الآلهة «أودين» بمطرقة الرعود والبروق، فإذا العملاق يصحو من غفوته وهو يحسب أن ورقة ذابلة من أوراق الشجر تساقطت على يافوخه «رأسه» فحسب !

أما أمين صدقى فقد جاء بثلاثة فتوات ومضى بهم إلى كعبة الفن على رصيف شارع عماد الدين، وأشار إلى ناظر المدرسة، وقيل بأنه لمس كتفه بيده، ومضى إلى حال سبيله، وإذ بالفتوات ينهالون ضربًا على المدرسة الحديثة كلها وضيوفها. ويطير طربوش الناظر وتخطف عصاه.. وتتحطم نظارة هاوى الأدب الإيطالى، ويضيع منه نص موسيقى ثمين وديوان دانتى. أما ضابط المدرسة فقد زاغ زوغانًا بحجة تأمين ظهر

ضيوف المدرسة المتقهقرين. وهكذا تلقت المدرسة الحديثة درسًا فى.. أدب الحوار.

ثم يفكر الناظر بأن قد حان الوقت لإنشاء صحيفة تتكلم باسم المدرسة الحديثة فكانت جريدة «الفجر.. صحيفة الهدم والبناء»: ورقة واحدة تطوى إلى أربع صفحات «الله ما يوريك» ! ينشر فيها الأعضاء نقدهم وشطحاتهم ليطالعوها وبضع عشرة أو عشرين من معارفهم الأقربين.

ويفكر الناظر بأن من رفعة مقام الصحيفة أن تكون لها مطبعتها الخاصة. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، فيشترون بفلوس مهندس التنظيم من سوق العصر وما إليه، مجموعة حروف يستأجرون لها شيالا يحملها على لوح عجين، ويسيرون وراءها يشيعونها حتى مثواها الأخير، وقرارها المكين.. بمندرة محمود طاهر لاشين...

وافترقت عنهم لأسافر بعيدًا فى غربة طويلة. ولكن «طاهرا» يوافينى بأخبار المدرسة «العتيدة» فى رسائل أرجو أن أعثر عليها يومًا لأنشرها صورة من أغرب صور التحرر والتطور فى عشرينات هذا القرن.

أحمد خيرى سعيد كان ناظر المدرسة الحديثة دون منازع: أخذنا عنه قلة الأدب، وعدم الاكتراث بمقامات الناس، والعنف فى النقاش، والزعْقُ فى المجادلة والتشويح بالأيدى والرأس والأرجل ونحن نتكلم. لا نحترم ميعادًا يضرب، ولا نلوم إنسانًا يخلف ميعادًا. الوحيد الذى

يملك ساعة فينا، كان المهندس طاهر لاشين: ساعة ذهبية تلقاها هدية من سلطان الزمان، بحكم أوليته لمدرسة المهندسخانة.

لا نعترف بوسائل المواصلات، ترامًا كان أم أتوبوسًا سيره لأول مرة بشوارع القاهرة سيد ياسين. يسكن ناظرنا بالعباسية ولكنه يعود إلى منزله هناك.. عن طريق السيدة زينب ليوصلنا إلى منازلنا ثم تأبى علينا المروءة - أو قل حدة المناقشة - إلا أن نؤوب إلى منازلنا بالسيدة.. عن طريق العباسية، لنوصل «خيرى سعيد» إلى المنزل العامر، وقد قارب الليل نهايته، وما الصبح ببعيد !

نطالع الملاحم الكبرى، بادئين فيها بهوميروس، ومارين بالشاهنامة، ومنتهين إلى «الفردوس المفقود» . نحب ونحترم محمد السباعى عقلا ولغة وشخصية. ونطالع مجلة «البيان» ثم يذهب بنا طاهر لاشين لنجتمع بصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى، وقد جلس مع صديقه الحميم محمد السباعى بمقهى فى الموارى، لا نعرف له اسمًا غير ما كناه به طاهر لاشين: «بار العفار» .

ونقرأ بلزاك وديكنز وتولستوى وفلوبير والملحق الأدبى لجريدة «التايمز» ومجلة «جون أو لندن» و «الأثينيوم» والـ «نيشن» لنعود إلى تشيخوف وموباسان. ونهاجم أساتذة الجيل الكبار.. دون أن نقرأ لهم شيئًا، وهم لا يحسون بوجودنا.

وتطلق على بعض أعضاء المدرسة الحديثة كنيات من اختراع خيرى أو طاهر: كأن نسمى واحدًا منهم «الجنيص» لأنه ينطق كلمة عبقرى الإنجليزية دون تعطيش الجيم، ويأتى إلينا «الجنيص» بأدب نحيف هفتان، فنسميه «المنيص»، ويؤلف طاهر قصته على لسان الحيوان يبدؤها بقوله «يحكى أن جنيصًا ومنيصًا تشاركا فى المعيشة..».

وكان الجنيص أملس جلد الرأس، لا شعرة فيه توحد الله، شبه الشاعر رأسه بـ «باتيناج القمل» - بتشديد الميم. فإذا انضم إلى المدرسة أديب جديد حقت عليه الجنيصة، فهو «الجنيص أبو شعر». أو فنان غير هفتان جدير بالمنيصة، سميناه «المنيص أبو كرش». ونعتاد كلنا على هذه الكنيات حتى ليصبح أصحابها فصيلة بعينها، يفتقدهم الناظر فى المجلس فيسأل: الله ! هما الجنايص راحوا فين الليلة ؟

وزميل كان يعجب بالكاتب بول بورجيه وتحليلاته الدقيقة للشخصيات - إبراهيم المصرى - فإذا الاسم «الحركى» للزميل: المحلل النفسانى. ولزميل آخر «ذعر»، لاستعماله كلمات عنيفة فى نقده، كأن يقول عن العمل العظيم أو الحقير إنه يثير فى نفسه «الذعر».

وكان العضو «زكى» يلبس نظارة «قرص أنف» (ترجمة بانس نيه) تخر واحدة من عويناتها ماثلة على خده تحت ثقل سلسلتها الجانبية - الأوستيك - ويحرص على الكلام بالفصحى مع قلقلة القاف وتعطيش الجيم، فنسميه - وهو أفندى - «الشيخ زيكو». ويدعونا الشيخ

زيكو لأكلة عاشوراء في منزله، وهو بيت عتيد تطلع سلمه المظلم، يضيئه فانوس متهالك، يتدلى في بير السلم من حبل عتيق علقت به استلاكتيت التراب والوحل والقرف. ينظر خيرى إلى الفانوس ويقول: هو ده الأسانسير يا شيخ زيكو ؟ فيرد طاهر لاشين من آخر الصف الطالع على السلم، وكأنه يخاطب نفسه: «دا باين عطلان» .

جلسنا نأكل العاشوراء بمنزل الشيخ زيكو، على ضوء القمر، وبعد أن أتينا عليها، اكتشفنا أنها لم تكن محوجة باليامبش فحسب، بل اتخذ أعشاشه فيها نمل كثير. ومنذ تلك الليلة وضع لنا ناظر المدرسة تقويما جديدًا.. يبدأ بليلة «العاشورة أم نمل !» .

وقفت المدرسة صفًا في منتصف الليل على ضوء «كلوب» بياع البلبلة. ويكتشف أحد تلاميذها – وكان أيضًا مفتش صحة القسم – حشرة صغيرة حمراء في سلطانية. وينفجر أعضاء المدرسة ضحكًا على زميلهم مفتش الصحة الذى زعم بأنه «سيسكع» بائع البلبلة محضرًا. ويقول طاهر لاشين للبياع أنت بتقنى صراصير يا عم ؟ ويؤكد خيرى سعيد أن الرجل «باني لهم غية في السطوح»، وإذا البياع يخطف السلطانية من يد مفتش الصحة، ويأتي على ما فيها بحركة واحدة وهو يقول: «صراصير إيه يا عم صل عالنبى» !

ويمضى أعضاء المدرسة الحديثة في طريقهم من السيدة إلى العباسية – وبياع البلبلة في عابدين – يفلسفون الحادث، ويتساءلون عما للنمل

والصراصير وما لهم فيقول العضو البرهمانى - أحمد شوقى حسن، وفى المدرسة فيلسوف عبرانى أيضًا، هو شالوم - بأنها أرواح أدباء تناسخت وتحاول الانتقام من المدرسة الحديثة. فيبادر طاهر بالقول: زى فتوات أمين صدقى، فاكر يا خيرى ؟

ويرد خيرى سعيد: يا سلام يا عزيزى، بالك أنت لو ما كانش معاهم شوم ؟

- كنت يعنى حاتعمل إيه يا سى خيرى ؟

- أقنعهم يا عزيزى بفساد المسرح الاستعراضى الفرانكو - آراب. بالك أنت، حانفضل وراء الملاعين دول لغاية ما يقفلوا المسارح دى. يا عزيزى، دى مسألة أخلاق.. أخلاق البلد، أمال إيه !

***

كلا، لست أرثى ناظر مدرستى أحمد خيرى سعيد، فروحه الساخر يتقمص تلاميذ مدرسته، وتلاميذ تلاميذ مدرسته: كلّ الساخرين الثائرين. لقد علمتنا المدارس الأميرية اللياقة والنظام والطاعة والانصياع، والمواربة وخداع النفس. وعلمنا أحمد خيرى سعيد الصراحة، وتجنب الادعاء والحنشصة، والثورة على كل تقليد بال، وتحطيم الأصنام مهما ارتفعت هاماتها، وعلت قواعدها.

درس خيرى سعيد الطب، فآمن حتى آخر حياته بالعلم، لا غنى عنه فى رأيه لا لأديب ولا لفنان.

«السيانس يا عزيزى. . !» يكفى أن تسمعه يبدأ هكذا لتحس أنه فى هذه المرة الواحدة الوحيدة، جاد كل الجد. فإن كان خيرى قد سخر بكل شىء وبكل فكر وكل إنسان، فإننى لا أذكر مرة واحدة أنه سخر بالعلم. كانت للعلم عنده قداسة خاصة - وما أعجبها كلمة تقال بصدد أحمد خيرى سعيد ! - وقد خدم العلم طوال حياته العملية: مترجمًا فنيًا بهيئة الصحة العالمية، وكاتبًا، وصحفيًا، ومفكرًا حرًا.

شكسبير فى خان جعفر

من

أعياد الحضارة التى شهدتها فى حياتى احتفال العالم سنة ١٩٢٧ بمضى مائة عام على وفاة شادى الإنسانية الأكبر لودفيج فان بيتهوفن، وها هو ذا العالم يحتفى بذكرى مولد وليم شكسبير (١٥٦٤).

أذكر فجأة احتفال مدرستى عام ١٩١٤ بذكرى مرور خمسين وثلاثمائة عام على مولد شاعر الإنسانية الأكبر. كان احتفالا صغيرًا، تم فى مكتبة المدرسة السعيدية بالجيزة. تداول فيه أساتذتنا التحدث إلينا عن «ابن ستراتفورد أون إيفون». وألقى واحد من أساتذة اللغة الإنجليزية منولوجًا لا أتذكر من أية رواية كان، والغالب أنه لم يخرج عن منولوج «الكينونة واللاكينونة» لهملت، أو منولوج ما كبث وهو يتأهب للغدر بضيفه الملك دنكان ويتخيل رؤية خنجر دام: «أهذا خنجر بمقبضه يلوح لى ؟ أنلنى منك ما تنضم عليه الأنامل، تفر منى وما أنفك أراك ألا ينال منك الملمس، مثلما يراك البصر ؟» .

ولم يمض عامان علينا فى المدرسة حتى كنا نؤلف جمعية التمثيل تقدم نماذج من نشاطها أمام الناظر والأساتذة والتلاميذ، ولأذكرنّ - كأنه بالأمس - الزملاء الذين شاركوا فى تقديم حفل خاص بشكسبير. ليس من حقى فيما أظن أن أبوح بأسمائهم وقد برزوا فى الحياة علماء وأطباء ووزراء.

عرضت على ناظرنا الأجنبى برنامج الحفل، وكان بعضه بلغة شكسبير، فطلب منى نسختين لمأساتى هملت وماكبث وأشار إلى بعض فقرات مما اعتزمنا إلقاءه، أمر بحذفها. وكل متمرس بأسلوب شكسبير يدرك معنى الرقابة التربوية علينا فى تلك السن المبكرة.

زميل ألقى منولوج ماكبث عن الخنجر، وزميل آخر لعب دور كبير الممثلين فى الجوقة التى يدعوها أمير الدانيمارك لتمثل أمام عمه القاتل. ولعبت أنا دور هملت فى الديالوج بينه وبين الممثلين فى أول لقائه بهم. وهو من المناظر المحذوفة فى ترجمة خليل مطران، وقد اكتشفت وأنا أراجع الترجمة تـوًا أن الخليل لابد قد نقل عن ترجمة فرنسية مقتضبة مشوهة والغالب أنها من الترجمات التى تختزل مناظر من الرواية إعدادًا لتمثيلها، وهذا أمر بالغ الخطورة، يضاف إلى الهنات التى أخذها الزميل الدكتور لويس عوض على ترجمات خليل مطران لشكسبير.

على أنه لا ترجمة شاعر القطرين، ولا حفل ذكرى مرور ٣٥٠ عامًا على مولد شكسبير بمكتبة المدرسة الثانوية، كانت أول صلة بين مراهقتنا وبين الشاعر الإنجليزى، إنما جاءت تلك الصلة عن طريق ترجمات أقدم لنجيب الحداد أو أخيه، كانت عجيبة العجائب. وأحسبها نقلت عن نصوص «الليبريتو» التى وضعت لتلحين الأوبرات نقلها الحداد نثرًا وشعرًا، ليلحنها الشيخ سلامة حجازى.

ولم أشـاهد تمثيلها فى أول أمرى على مسرح الشيخ سلامة وإنما فى مسارح أحيائنا الوطنية ممن درجوا على تقليد جوقة الشيخ، من أمثال عبد الحميد عزمى، وعبد العزيز الجاهلى.

أى إننا لم نعرف شكسـبير على حقيقته فـى ذلك الزمان إلا عندما تمكنا من مطالعته فى الأصل، وهأنذا أكتشـف حتى فى ترجمة المطران لرواية «هملت» حذفًا واقتضابًا وتبويبا عجيبًا.

ولم يمكن هذا فى الحق سـوى صورة من ضروب التشـوية والمسخ التى أجريت على أعمال شكسـبير فى أمكنة أخرى من العالم. ويذكر المطلعون علـى تاريخ الأدب الإنجليزى مـا أجراه الممثل دافيـد جاريك فى القرن الثامن عشر من تعديلات عند إخراجه لتمثيليات شكسبير. وهذه لا تقارن بالاعتداءات الكثيرة على نصوص شكسبير فى القرن السابع عشر، بل هى قليلة بالنسبة لما جرى فى الترجمات الفرنسية والألمانية الأولى.

عرفـت شكسـبير أول ما عرفت فى تلك التلفيقات النثر – شـعرية لنجيـب الحداد، وفى تخشـيبات أو شـوادر. وأذكر هملـت طفولتى بسترته السوداء، وسـيقانه مغلفة بمايوه أسود وقبعته مطرزة بالخرز الأسـود، وريشة سوداء. أذكره ينغم شعرًا سخيفًا يقول فيه «عم خئون وأم لا وفاء لها» .

وكلمـة خئون هـذه كانت من أولـى جواهرى اللغويـة، كما كان شـبح أبـى هملـت أول أدواتـى كمؤلـف مسـرحى، هـو والمبارزة

بين هملت ولايرتس. فلا غرابة فى أن أستعمل الثلاثة فى الفصل الأول من تمثيليتى الأولى. . . والأخيرة، ألفتها ولما أبلغ الثانية عشرة. تبدأ بمناقشة عنيفة بين شخصين، ينعت أحدهما الآخر، لسبب نسيته بقوله «خسئت يا خئون» ثم يسحب سيفه للمبارزة كما تعلمنا من مسارح الماوردى والبغالة وخان جعفر بسيدنا الحسين.

وقبل أن أختم الفصل الأول قام نزاع بين الصحاب الذين اتفقوا على تمثيل روايتى فى مندرتهم، لسبب بسيط وهو أن أحد المتبارزين أردى زميله وهو يقول «مت يا خئون، يجرعك سيفى كأس المنون» فاحتج صاحب الدور على خاتمة دوره القصير وقال: ماذا أصنع بعد هذا ؟ أليس فى الإمكان الإبقاء على ولو إلى آخر الفصل ؟

- لا عليك يا محمود، فإنك البطل الذى تدور حول مقتله حوادث الرواية.

- وماذا تعنينى أن تدور، ودورى قد انتهى قبل أن أهنأ بالملابس التى أفصلها خصيصًا للدور ؟

إنك لا تفهمنى، دورك مستمر لبقية الرواية، سيكلفك عرضًا من البفتة تتلفع به. إنك الشبح الذى يطارد جميع أشخاص روايتى على مدار فصولها الخمسة.

وهذه قصة شبيهة بما حدث لفاجنر فى صغره عندما ألف مأساة قتل فيها جميع أشخاص الرواية فى الفصل قبل الأخير واضطر إلى «تشغيل» أشباحهم ليتم روايته.

هملت وشبح أبى هملت ومبارزة هملت ولا يرتس، تلك كانت وقائع مسرحيات طفولتنا، نرصعها بكلمات: خئون، مقدام، كأس المنون، أو كأس الحمام.

إذ كيف أنسى الشبح وقد تسربل بثوب من البفتة «بفتة هندى، بفتة هندى شاش عريض يا بنات !» وسلط نور الكلوب على وجهه فبرقت عيناه وهو يردد فى صوت رهيب: ها مـ مـ مـ ليـ يـ يـ ت.

وهملت يغنى بعد أن يعرف بمأساة أبيه وزواج أمه من عمه: «عم خئون وأم لا وفاء لها» .

أو ينشد:

أبتى ! أين أنت تنظر ما تم صار عرسًا ذاك الذى كان مأتم
وغدت بعدك المآتم أفرا حًا وذاك الثغر الحزين تبسم

ويمكن لمن مارس الشعر التقليدى أن يستجمع بقية القوافى مقدمًا فى: أم، عم، هم، دم، عندم، مندم إلخ، وهى قافية ميسورة بالرغم مما يبدو لأول وهلة.

وربما كانت «هملت» أكثر روايات شكسبير التى رأيتها تمثل على المسرح أو فى السينما: عبد الحميد عزمى، عبد العزيز الجاهلى، الشيخ سلامة، عبد العزيز خليل، الملقن شلبى، الإيطاليان زاكونى، وروجيرو روجيرى، الألمانى مويسى، البريطانى أوليفييه، ثم ذلك الممثل الأيرلندى الذى نسيت اسمه، مع فرقة دبلن جيت، على مسرح أوبرا القاهرة.

ولم أسمع ولو مرة واحدة «آمليتو» شخصية الأوبرا، ولكنى سمعت مرات «أوتللو» فيردى، كما رأيتها فى الترجمة الملفقة، يمثل «عطيلاً» رجلٌ اسمه مختار ضخم الصوت، واسع العينين، عريض المنكبين، وخرجت من الرواية أسخم «أسود» وجهى برماد الورق المحروق وأصرخ فى المرآة: ديدمونة المنديل، أين المنديل.

أما «روميو وجوليت» فكان اسمها فى مسارح طفولتنا «شهداء الغرام» وفيها يغنى الشيخ «يا غزالا صاد قلبى» و «سلى النجوم أيا جوليت عن سهرى» – أو هى شارلوت ؟ لا أدرى – ويبكى موت جوليت بقصيدة «سلام على حسن يد الموت لم تكن» وفيها يقطع نياط قلوب الحريم المشاهدات وراء ستائر الدانتلا، بغنائه «أجوليت ما هذا السكوت إلخ» .

ورأيت جورج أبيض فى بعض دور «هملت» . كان ذلك خلال تمثيله دور «الممثل كين» فى رواية ألكسندردوماس. وفى واحد من فصولها يقوم كين بتمثيل النظر المؤلم بين هملت وأمه، وهو يؤنبها على فعلتها ويقارن بين صورة أبيه وعمه.. وهنا يلاحظ كين أن الوصى على عرش إنجلترا يغازل الفتاة الأرستقراطية، حبيبة كين، فيترك التمثيل ويتجه إلى حافة المسرح ويصرخ محتجًا على الوصى ثم ينعت نفسه بالمسخ كين، والمهرج كين، ويقع مغشيًا عليه يقيس خشبة المسرح.

هذا ما كان من أمر الممثل كين مع غريمه الوصى على عرش إنجلترا.

ولكنى رأيت – فى مصر – من كان يمثل دور عطيل، وشاهد فى

الكواليس زميلا له يغازل ديدمونة زوجته فى التمثيل وكانت زوجته فى الحياة، فغادر المسرح وهجم على غريمه الذى قفز من الكواليس إلى الشارع، والمغربى الأسود يطارده فى دروب الأزبكية حيث كانت دار التمثيل العربى.

كل ذلك رأيته صبيًا قبل الحرب الأولى وفى خلالها. ولما وضعت الحرب أوزارها كان المسرح قد اتخذ مظهره الجاد، وترجم مطران «ماكبث» ومثلها جورج أبيض، ومعه عبد الرحمن رشدى فى دور «ماكدوف» . وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الفرقة القومية قد أنشئت، وترجم مطران «هملت» و «تاجر البندقية»، وأخرج زكى طليمات هذه الأخيرة إخراجًا ما زال ماثلا فى الأذهان، ومثل دور «شايلوك» وكان من أحسن أدواره وأعظمها.

وبالرغم من تطورات المسرح عندنا فقد بقيت لنا آثار المسرح العتيق الذى ورثناه عن سارة برنار وكوكلان ولوسيان جيترى، ثم سيلفان، ولوبارجى، فى طريقة الإلقاء المتأنق المفتعل والشهيق والزفير.. والشخير، مع تشطير الهواء بالأذرع كل تشطير، والزَعَق بصوت المرحوم أحمد فهيم يقول: ويل لملك النمسا من قلب الأسد، بل ويل لعسكره إذا لعب هذا السيف فى اليد !

يقول المخرج البريطانى بيتر بروك عن ترجمة شكسبير فى أوربا القرن الماضى بأنه كان العصر الذهبى لترجمات شكسبير. مثلا فى

ألمانيا، أول ما يتلقى الصبى شعر شكسبير كان فى ترجمة شليجل - تيك، وهى ترجمة مغرقة فى الرومانتيكية، أشبه بالمنظر الذى صوره فوزيلى لجر روايات شكسبير وشخوصه، أى إن الشعوب الأوروبية فى القرن التاسع عشر عرفت شكسبير كما لو فرضنا أن قد عرفه الشعب البريطانى لا فى أصله بل - على سبيل الفرض - فى ترجمة بيرون لهاملت، وشيللى للملك لير، وكيتس لروميو وجوليت.

وأقول بأن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كان العصر «الصفيحى» لتراجم شكسبير إلى العربية: ماذا يهم ؟ هل أضعفت تلك الترجمات من قوة شكسبير الدرامية ؟ ألم تترك فى طفولتنا أثرًا لا يمحى حتى إذا ما بلغنا الحلم، رحنا نطالعه فى لغته مثنى وثلاث ورباع، وها نحن أولاء نتهيأ للعودة إليه، ومطالعته فى سياقه التاريخى، بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور أربعمائة عام على مولده. ولن نجد بنا حاجة إلى الحواشى والهوامش أو التوقف بمفردات ألفاظه القديمة. ماذا يهم ؟ ألا تكفينا موسيقى شعر شكسبير وصوره الفتانة الرائعات ونبض الحياة التى تعيشها شخصيات صناجة الإنجليز ؟

يقدم رجلا ويؤخر أخرى

وقف مدرس اللغة العربية يشرح أمام الفصل صورة من صور البلاغة، لم تكن بحاجة إلى شرح، وهى صورة الحائر المتردد أو الخائف المتوجس، يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

قدم المدرس رجلا.. فعلا، ثم أخر الأخرى، فإذا البرجل (- الفرجار من فضلك) ينفرج. ولكن الأستاذ يفسر نظراتنا المتعجبة على أساس أننا لم نفهم.. فيقد م الرجل التى تقدمت، ويؤخر التى تأخرت، والبرجل يزيد انفراجًا حتى فقد المحترم توازنه، وافترش أرضية سنة ثانية فصل رابع. ومن سوء حظ حضرته أنه لم يكن قد تلقى دروسًا فى الباليه، وإلا لجاء تزحلقه نظاميًا، وانتهى إلى ساق ممدودة إلى الأمام، وساق ممددة إلى الخلف، وقد جلس على جذعه، مثلما تفعل راقصة الباليه، فى الكباريه.

أما سيدنا فقد انهار كالبناء المشمخر (اشتد ارتفاعه) فى الإعصار، عندما تزلزل الأرض زلزالها.

وهرول تلاميذ الصف الأول ليأخذوا بيد أستاذنا الفاضل، وكنا نحب إصراره على شرح الغامض بحركات جسمه ويديه ورجليه، من قبيل التسالى والترفيه.

ولـم يهرول تلميذ واحد من تلاميذ مدرسـة محمـد على الابتدائية لينقـذ ضابط المدرسـة من وحلته وسـط الحوش عندمـا تزحلق فى يوم مطير، وقـاس الأرض بطوله.. أو بقصره، فقـد كان ربعة القوام مقببا كالوسـادة جيدة الحشـو، سـليط اللسـان حريصًا على النظام، وصكنا «بالأقلام» أمام طابور التلاميذ مصطفين كالأصنام.

كان الضابـط - برغم كرهنا له - أجدر بـأن يأخذ أحد بيديه ليقيله من عثاره. لأن زكى أفندى كانت له طريقة فى لبس البلطو «وكان ينطق «البنطو» لخنافة فى أنفه المستدير كالبرميل» زادت من خطورة زحلقته. كان «بسـلامته» يلبـس المعطف على طريقة الفنانين فـى مطالع القرن، أى دون أن يدخـل ذراعيـه فى كميه. وكان بنطو زكـى أفندى من اللون المشمشى «المسخسخ»، يماثل «يشابه» لون الصحراء ولكنه يتعارض تمامًا ولون طين البرك التى استحال إليها فناء المدرسـة فى يوم شاتٍ، ربما كان فى آخر السنين العشر الأولى من هذا القرن..

وخوفًا من أن يطيـر البلطو، أو ينزاح عن كتفيه فى اليوم العاصف، زرره زكـى أفندى بطريقـة مجهولة لنا، فتحول ضابط مدرسـتنا فى معطفـه إلى «زكيبة» بطربوش، وتصور أنه بعـد ما نادى على طوابير المدرسـة «صغادن - مارش» وارتقى التلاميـذ الدرج إلى قاعات الدرس وخـلا الفناء، تزحلق وطار طربوشـه فى الهـواء «وانبط» على مقعدته فـى الوحل، وهو لا يملك لذراعيه حراكًا، فاسـتعاض عنهما بحركات رجليه فى الهواء، كمن يدير «بسكليت» فى خياله.

ولـم ير الورطـة، أو المحنة، أو الفصل المضحك، سـوى بعض قادة الطوابيـر، فلـم يتحـرك واحد منهم لنجـدة ضابطهـم الهمام، حتى ولا «الرئيس» بسيونى، الذى لم يتمالك من الضحك على «الأسد المرعب» وما صنعت به عدالة السـماء، إذ حولته إلى صرصار مقلوب على ظهره فى الوحل.

وصاح زكى أفندى فى بسيونى بصوت زاده الزكام «خنافة» وهو يكاد «يطرشق» من الغضب:

«وكماد بتدحك يا بسيودى !».

***

مـا رأيـك فـى أول هـذه القصيـدة وأنـا أسـتعرض أيام دراسـتى الأولى؟صدقنى لقد بدأتها بعزيمة جادة، وفى ذهنى محاولة الإجابة عن سـؤال خطير: هل ربينا تربية سياسية فى مدارسنا – نحن أبناء ما قبل الحرب العظمى الأولى – ؟

لا، قطعًا، فى المدارس «الأميرية».

ونعم، بالمدارس الأهلية.

فقد قضيت عامًا من أعوام المرحلة الأولى بالمدرسة التحضيرية الكبرى بأول درب الجماميز، وكانت مدرسـة أهلية يديرها وطنى غيور، رجل أسـمر البشـرة جميل التقاطيع، أنيق البزة، خطيب جيد انتهى نهاية الوطنيـين المجاهدين.. فى غيابات السـجون، محكومًا عليه من المحاكم العسكرية البريطانية فى ثورة ١٩.

بالمدرسة التحضيرية الكبرى استمعنا إلى الخطب الحماسية من الناظر ومعاونيه وعرفنا من أساتذتنا بعض سيرة الاحتلال وكفاح الحزب الوطني، وسمعنا كلامًا مفهومًا، وغير مفهوم، عن الجلاء، وعن شيء اسمه الدستور، وخرجنا من المدرسة في موكب طويل إلى مقبرة مصطفى كامل كان ذلك ولا شك في ذكرى وفاة الزعيم الكبير، لأن خطبة ناظرنا الأسمر قبل السيرة لم تكن بكاء ولا رثاء، بل كانت تثير الهمم القعساء، وتنادى بالجهاد والفداء.

وما إن انتقلت إلى المدرسة الأميرية بشارع مراسينة حتى نزل ستار «البلاك أوت» علينا. فلا كلام في السياسة، ولا ذكر للصحف. وكانت هذه من الممنوعات، مثلما كانت السجائر في المرحلة الثانوية، عندما كان ضباطها يتعقبون المدخنين من الفصول العليا، في أركان حوش المدرسة السعيدية ويتشممون ككلاب الصيد، حول الأدبخانات.

وللدخان والسجائر في مدرستنا الابتدائية ذكرى لا تنسى، عندما هاجم الناظر واحدًا من أساتذتنا في حصة العصر، وكان قد فرش صندوق الدخان، ودفتر ورق السجائر فوق منصة الأستاذية، وإلى جانب هذا وذاك العصاة التي كان يضربنا بها ضربا عشوائيا. فلم تك لديه من الحصافة ما وهب الله زملاءه، كمدرس الحساب مثلا، الذى يضرب بالمسطرة، ومدرس الجغرافيا الذى يضرب بالرجل الخشبى الكبير.. أى بأدوات دراسية.. بريئة، وإن كانت لهم فيها مآرب أخرى. ومدرس الحساب كان من النوع «السادى» الهادى، و «ياما تحت السواهى

دواهـى» . يطلب إلى التلميذ فى لطـف وأدب جم أن يمد يده، وأن يضم أصابعها إلى أعلى فيما يشـبه حركة «شـوية شـوية» ثـم ينزل بعرض المسـطرة على أطراف الأصابع بضربات سريعة متلاحقة. وقد قبض على ذراع التلميذ البليد، بيد من حديد.

و «السـادية» عند الأسـتاذ كانت واضحة فى ابتسامته الصفراء وهو يقـول للواحد منا «ادينى الكمتـرى» لأن خياله المريض كان يصور له يد التلميذ المضمومة.. على هيئة الكمثرى.

فاجأ الناظر - وكان تركى السـحنة واللكنة - أسـتاذنا، وقد فرش فوق منصته مجموعـة من المهربات «البداجوجيـة» : الدخان، وورق السجائر، و العصا. والحق أننا فى براءتنا لم نكن نعرف أن ذلك شىء محظور. . إلا عندما رأينا الأستاذ الفاضل يخطف تلك الأشياء ويخفيها كلها وراء ظهره وهو يقف وينزل عن المنصة، وينادى: قيام سلام.

وقامـت منـاورة من نـوع الكوميديا «الفـارص» بين الناظـر التركى قصير النظر، وبين الأسـتاذ.. يتحرك فيها الناظر فى اتجاهات تسـمح لـه - خلال عيينـات سـميكة، ذات عريش يعترض ما بـين حاجبيه - باختـلاس نظرة، يحقق فيها ما يخفى المدرس وراء ظهره. والأسـتاذ يتحـرك حركة الأرض حول الشـمس، يواجه الناظـر بصدره الرحب، وشـواربه المملوكية سَـوَدَها الخضاب، وقد تدلـت أطرافها على جانبى شفتيه، كأنه جنكيزخان.

ما رأيك فى ذلك الأستاذ الذى كان يغرس فينا الفضائل – كالشجاعة والصراحة والصدق – لفظًا ومعنى، لا عملا ؟

كانت الجرايد ممنوعة قطعًا فى مدارسنا الأميرية، ولعل هذا يفسر تأخرى فى ممارسة مطالعتها حتى السنة الثانية الثانوية عندما نشبت الحرب العظمى بين دول الوسط، وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا، وانضمت تركيا إلى ألمانيا.

والأدهى فى مطاردة الصحف من حياتنا أن بعض مدرسى اللغة العربية كانوا يحذروننا من لغتها، بحجة الركاكة، وكان المدرس منهم يقدم الصفر، وما تحت الصفر تقديرًا لموضوعات الإنشاء، قائلا: هذه لغة جرايد !

ولقد عثرت مؤخرًا على كراسة لى من كراريس الإنشاء فى أول المرحلة الثانوية فخجلت من تفاهة أفكارها وسماجة أسلوبها التقليدى، وموضوعاتها البعيدة عن الحياة وكل جميل فى الحياة. والتى كنا نحار فى استهلالها فلا نجد غير جملة «خلق الله الإنسان» ، ولا نعرف حيلة لإطالتها غير التكرار الممل، والسجع المخل، مخل بالمعنى، مخل حتى ببناء الجملة، وفى غير عبارات محفوظة «كخروج الرئبال، من بين الأدغال» أو بيت شعر رث كفردة الجوراب القديم.

بل خجلت من تصويبات الأستاذ، وهى تزاحم فى غثاثتها، أسلوبى الغث، وإن صدقت فى تصحيح حروف الجر، أو اسم إن.

وخف وطء خجلى من نفسى عندما عثرت فى الكراسة على ما كان يمليه علينا الأستاذ بعنوان «نموذج للموضوع» . وآسف أننى لا أجد الكراسة تحت يدى فى الحال، لأنتقى من بين درر الأستاذ درة يكسف لألاؤها وجه الشمس.

كنا بمنأى عن السياسة فى مدارسنا «الميرى»، ربما كنا نتحدث فيها سرًا، ولكنى لا أذكر من تلك الأحاديث غير ما كان يقصه على زميل ابن وزير، مما وقع بين الخديو وناظر نظاره، وأدى ذلك إلى فصله (فصل ناظر النظار، لا زميلى).

أليس عجيبًا من جيلنا الذى تربى فى قمقم «الميرى» وقضى مرحلته الثانوية تحت الأحكام العرفية البريطانية ؟ «أنا جون ماكسويل، القائد العام لجيوش حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند، آمر بما يأتى» . .

أقول: أليس عجيبًا من جيلنا أن يتحرك حركة عارمة ذات صباح من مارس ١٩١٩ ويخرج إلى الطريق العام، والمظاهرات والفدائية، فلا يعود إلى معاهد العلم إلا بعد ضياع عام كامل من دراسته ومنا من لم يعد، إما جرفته الحياة الحرة وإما اغتالته المحاكم العسكرية ؟

هل نفسر ذلك بفعل الكبت ورد الفعل، أو هو الفارق الكبير بين «حبسة» المدارس الابتدائية والثانوية، وبين حرية التصرف فى المدارس العالية ؟

لماذا أسمح لنفسي بالتندر على بعض أساتذتي مع ما أكن لهم من حب وإجلال ؟ ثم ألم يكن لهم ولأساتذة اللغة العربية بالذات - فضل الفصاحة والدربة التي مكنت بعضنا من أن يصبح من أبلغ خطباء الثورة، في صحن الأزهر الشريف ؟

ربما كانت ظروفنا السياسية في ثورة ١٩ هي التي قومت من أساليبنا، وصرفتنا عن التمثل بالأشعار السخيفة والسجع، إلى صدق التعبير، وأصالة التفكير.

وللأسلوب والفكر، وتطورهما عند أهل جيلي حكاية أخرى. . . ربما عدت إليها.

عودة إلى كراسة الإنشاء

«إلى الشمال من مدينة الجيزة بين المدرسة السعيدية وضفة النيل الغربية حديقة غناء، وروضة فيحاء هى حديقة الحيوان، كأنها من رياض الجنان أو سفينة نوح فيها من كل جنس زوجان. فثمة روح وريحان، وأشجار ذات أفنان يجرى النسيم خلالها وكأنما غمرت فضول ردائها فى العنبر قد حنت على المتنزهين حنو المرضعات على البنين تقيهم لفحة الرمضاء، وتصحح له مفاسد الهواء.

وكل غصن بغصن صار معتنقًا مسرة كاعتناق اللام بالألف

فيها طيور تصدح، وعجم تفصح وزرافى ونعام، وظباء بين الآكام كظباء مكة صيدهن حرام، وأفيال كأسداف الظلام أو قطع الغمام.. إلخ».

هذا نموذج الأستاذ فى وصف حديقة الحيوان للسنة الأولى بالمدرسة السعيدية الثانوية، عام ١٩١٤.

أما التلميذ فيقول، متذكرًا ما جاء فى كلام الأستاذ، وهو يقرأ النموذج علينا قبل الشروع فى التحرير: «وأفيال كأسداف الظلام، أو قطع الغمام. . تراه قصير الرقبة، ولكن الله خصه بخرطوم طويل، وأعطاه فى القوة (من، بالحبر الأحمر) على خلع شجرة (صححت: وأعطاه من القوة الحظ الجزيل)، وزرافى و نعام وقد طالت رقابها فالزرافة يوضع لها الأكل فى سطح مسكنها العالى فتأكله بكل سهولة. . إلخ» .

ومن موضوعات ذلك العام الأول فى دراستى الثانوية «تأثير الأخلاق الفاضلة فى ارتقاء الأمة وسعادتها» . «أجل - يقول الأستاذ - فإن الأمة التى ضربت فى مكارم الأخلاق بسهم لجديرة بأن تقبض على صولجان السعادة الحقة، والمجد الشامخ، والعزة القعساء (ال ثابته)، والقوة العلياء والعدد العديد، والشوك والحديد» . أما التلميذ فيبدأ موضوعه هكذا «تالله ما رأينا فردا قد تحلى بالفضيلة، واتخذ منها ثوبًا قشيبًا، إلا وهو محبوب عند كل الناس» .

وفى موضوع «مزايا الرفق بالحيوان» يبدأ التلميذ بالجملة التقليدية «خلق الله الإنسان» ، ونموذج الأستاذ «خلق الإنسان» .

يتحدث التلميذ عن «الطيران، وماضيه وحاضره ومستقبله»: فأول من فكر فى ذلك هو رجل من كبار علماء العرب بالأندلس يدعى العباس بن فرناس. . (الحكاية) «غير أنه لم يفكر قبل صعوده فى كيفية النزول»؟؟«فحينما أراد أن ينزل لم يقدر فسقط على الأرض فتهشمت عظامه، ومات أشنع ميتة.. فلما قرأ الفرنسيون كتب العرب وعلموا ذلك اجتهدوا فى تقليد ذلك الاعرابى. . واخترعوا المناطيد سنة ١٨٣٥. ولما علم الألمان بذلك اجتهدوا فى تحسين هذا النوع من الطيارة، وجعْله أقل خطورة، فاخترعوا السفن الهوائية.. وكان الأمريكيون يجتهدون فى عمل طيارات من نوع آخر، وهى الطيارات التى نراها الآن. . فإن ابنى ريت اخترعاها وجعلاها (بالأحمر: فعل المشى) تطير بالبنزين،

نوع من زيت الاستصباح، وكانت فرنسا فى ذلك العهد تباهى بأنها أول من اخترع الطيارات فلما سمع ولبور ريت ذلك رحل من بلاد أمريكا إلى فرنسا سابحًا فى الجو، ليرى فرنسا أنه المخترع لأحسن نوع من الطيارات (غير صحيح، لأن أول من عبر الأطلنطى من الغرب إلى الشرق كان لندبرج عام ١٩٢٧). . ووفد إلى مصر هذا العام (١٩١٤) جماعة من ملوك الهواء، جول فدرين وجاك بوييه والمسيو أوليفييه، وسيفد الأسبوع الآتى طياران يلعبان ألعابًا بهلوانية فى الهواء» .

«وللطيران فوائد كثيرة، خصوصًا فى الحروب. . ولقد تحل محل السفن البخارية والوابورات البرية (بالأحمر: القطرات) فإن أحد الروسيين اخترع طيارة حملت عشرة رجال.

هو العلم يعلو بالحياة سعادة ويجعلها كالعلم محمودة العقبى»

وحاز التلميذ على سخفه هذا أكبر درجة طول عامه الدراسى: سبعة من عشرة، كما حصل على درجة مماثلة عن موضوع «حديقة الحيوان». أما موضوعاته الأخرى فيتراوح التقدير فيها بين خمسة وستة من عشرة، ويوصف أغلبها بمثل «ضعيف العبارة جدًا»، «ليس بشىء» وفى موضوع «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم» توجت الأوصاف بقول الأستاذ «عبارة ركيكة» .

ومن موضوعات العام موضوع «فوائد المقاحف» لا تذكر فيه كلمة واحدة عن الجمال والفن، والنقاط التى أملاها علينا الأستاذ تدور حول

الـدرس التاريخى العملى، وعن المحاكاة والتقليد «إذ يرى الصناع تلك الآثار الدقيقة، فلايسـعهم إلا محاكاتها، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. فهى المورد العذب يستسـقى منه كل من رام ريًـا فى صناعته، وإتقانًا جليـلاً فى حرفته، ليحوز قصب السـبق فى مضمار الصناعة» ولا كلمة عن الفن والجمال !

واضح من المقارنة السابقة بين ركاكة التلميذ وبلاغة الأستاذ، أن هذا الشـبل من ذاك الأسـد: النبع واحد، والهدف واحد، هو محاولة رص كلام فارغ، ولكن فى جزالة أسلوب، وبلاغة تعبير !

وكانت مسـألة حياة أو موت أن تتركز عنايتنا فى تجويد الأسلوب، وصقله. فما إن بدأنا دراسـة الأدب العربى حتـى اندفع التلميذ يطالع أعـلام هذا الأدب فى دواوينهم وخطبهم ورسـائلهم، وما أشـك فى أن أسـلوبه سـار على الدرب «ومن سـار على الدرب وصل». كما أعرف يقينًا أنه نظم على غرار العرب أبان حضارتهم العظمى.

ثـم حدث أن اتسـعت معـارف التلميذ فى اللغـة الأجنبية، حتى اسـتطاع أن يطالع القصص والقصائد المشهورة فى تلك اللغة، ولم يكتف بمـا وضعت نظارة المعارف بين يديه من مجموعات شـعرية بل اقتنى «الخزانـة الذهبية» جمع بالجريف، والتهم منتخباتها التهامًا، بفهم ناقص، يكمله تأثره بموسيقى الشعر وأوزانه.

وكلما تقدمت بنا الدراسة، واتسع الاطلاع، نضج الفهم، فإذا بالأدب الأجنبي يجتذب التلميذ إليه بقوة. ولا غرابة فى هذا لأن الأدب الأجنبى الذى ألقى إليه يرتد إلى القرن السابع عشر، وأغلبه من التاسع عشر. فالقرن العشرين. بينما الأدب العربى يعبر عن مشاعر و يصور أفكار قرون غابرة، ربما كان أقربها إلينا القرن الحادى عشر. والأمر هنا لا علاقة له بقومية أو وطنية، فلغتنا هى العربية، آمنا، وكنوز العربية ما أروعها وأبلغها، ولكنها تعبر عن وجدان أهل لنا بعيدين عنا جدًا فى الزمان. فالفارق هنا ليس بين شعب وشعب، بل هو فارق إدراك وإحساس، وطريقة فى التعبير عن خوالج الإنسان، أقرب إلينا فى الأدب الأوربى، لمجرد تقارب الزمان الذى تعبر عنه.

هذا إلى أن بعض الآداب الأجنبية، حتى ما كان أقدم كثيرًا من الأدب العربى - كالأدب اليونانى - تعالج موضوعات إنسانية فى أسلوب درامى، أو فى شعر ملحمى أى على أساس القصة أيًا كان شكلها.

ولو أن أساتذتنا خرجوا قليلا عن أبواب الأدب العربى الصميم إلى فصول من الفلسفة أو التاريخ أو الطب، أو العلوم العربية أو الرحلات، لتمكنوا من تمهيد مجالات التعبير لنا، مع توسيع مداركنا عن إنجازات الحضارة العربية الزاهرة.

أما أن نعقد على الأدب العربى وحده فى نثره ونظمه، فما أحب ذلك إلى روحنا القومى، وما أحوجنا إليه فى تقويم لغتنا. ولكن من ذا

الذى يقاوم أثر الأدب الأوربى عندما يطالع سويفت وميلتون وجونسون وماكولى وديكنز وثاكرى وتوماس هاردى ؟ وهل تحتوى آداب العالم على كثير يقف أمام درامات أسخيلوس وسوفوكليس وأوروبيدس وشكسبير ؟

كل هذه تفاصيل، تزجنى فيها صراحتى وصدقى مع نفسى. المهم أننى تعلقت بالأدب العربى والأوربى، منذ تحولت قراءاتنا من السخف الذى بدأت به هذا المقال، إلى آداب اللغة العربية ونصوصها العظيمة، ومنذ تقوت معارفنا فى اللغة الإنجليزية.

وكان لحب الأدب عامة فضل دفعنى إلى تعلم اللغة الفرنسية وقد عز على أن تدرس تلك اللغة للقسم الأدبى، ونحرم منها فى القسم العلمى، فبدأت من الثالثة الثانوية أتلقى دروسًا فى تلك اللغة بمدرسة عالية مشهورة مازالت بمكانها إلى اليوم، وإن لم تحتفظ بمكانتها.

واشتهر أمر حبى للأدب بين زملائى بالقسم العلمى وأساتذتى. وسألت أستاذ الإنجليزية إن كان ممكنًا قبولى بمدرسة المعلمين العليا: بالقسم الأدبى، إذا ما حصلت على البكالوريا قسم علمى، ونقل المدرس الخبر إلى الناظر الإنجليزى فاستدعانى مستر شارمان وتحدث إلى فى رفق، لم نعهده فى مظهره العام، وكان نوعًا من البعبع المرعب للمدرسة كلها. وأظهرنى على صعوبة قبولى بالقسم الأدبى بمدرسة المعلمين، ثم طمأننى بأن هناك مشروعًا وشيك التنفيذ لإنشاء جامعة «ولا أظنك تلاقى صعوبة فى التقدم إلى كلية الآداب، بشهادتك العلمية» ثم سلم

إلى قصاصة من جريدة «الميل» أو «الجازيت» بها مقال عن مشروع إنشاء الجامعة الرسمية، وكنا فى سنة ١٩١٧ نحضر للبكالوريا، وهو المشروع الذى لم يخرج إلى النور إلا سنة ١٩٢٥، أى بعد انتهاء دراستى العالية بمدرسة الطب المصرية.

والتغيير الذى حدث فى حياتى المدرسية منذ شغفت بالأدب (وألف، ولهذا حكايات أخرى) جعلنى أنصرف عن الألعاب الرياضية وكنت عضوًا بفريق الجمباز الأول بالمدرسة الابتدائية، ولاعب كرة فى فرق الفصول، وفى المدرسة السعيدية وقع الاختيار على لقيادة فصلى كاملا كفرقة جمباز، وكان فصلى مؤهلا للمركز الأول فى مباراة العام بين الفصول.

وحدثت مأساة، عندما قضيت فترة الفجر أعد قصيدة عن «الرفق بالحيوان» استغرقت كل وقتى حتى ميعاد الدروس ونسيت تمامًا أن مباراة الجمباز لفرقتى كان ميعادها ذلك الصباح، قبل بدء الدروس بنصف ساعة، واستدعيت أمام الناظر، الذى قابلنى بجفاء، وسألنى عن سبب تخلفى؛ فأجبته مختنق الصوت بأننى نسيت وعوقبت أقسى عقوبة معروفة فى زماننا أنا الذى لم تبدر منى هفوة أعاقب عليها حتى أخف العقوبات، طوال حياتى فى المدرسة.

ولازمنى حب الاطلاع العام، وممارسة الأدب، إلى يومنا هذا. ومما ساعدنى على التوسع فى الاطلاع أن أستاذًا بمدرسة الطب ضمنى

بـدار الكتب، وكانت تيسـر الاسـتعارات الخارجية إلـى أقصى حد. ومازلـت أذكر صف الكتب الطويل على مكتبى مما كنت أسـتعيره من الدار. كما عرفت – فى مدرسـة الطب – طريقى إلى ا لجامعة المصرية القديمة، وكانت بميدان الأزهار، فحضرت بعض دروس الفلسـفة على الكونت دى جالارزا، ودروس الأدب الفرنسـى على مسيو كليمان (عن فلوبير ومدام بوفارى) والأدب الإنجليزى على من لا أذكر اسـمه، وإن ذكرت دروسه عن وردزورث. وكان لى حظ حضور محاضرة للدكتور طه حسـين، وأحسـبها كانت محاضرته الأولى بعد عودته من فرنسا. ولم يصدنى عـن متابعة محاضراته الرائعة إلا ازدحام القاعة بالمسـتمعين ازدحامًا شديدًا.

ومما أعاننى على تحرير أسلوبى من البلاغة التقليدية انكبابى على نوع من التمارين، رسـمتها لنفسـى، وهى أن أترجـم عن الإنجليزية بعـض القصائد المشـهورة فـى «الخزانة الذهبية»، وبعـض مناظر من شكسبير (من هاملت، وماكبث، وعطيل).

ودفعت بى هواية المسـرح إلى مطالعة الأدب التمثيلى عند اليونان. وروايـة «شـاكونتالا» الهندية لكاليداسـا، كمـا دلنى أسـتاذ اللغة الإنجليزية على إبسـن وجيمس بارى، وبرنارد شـو، وأوسكار وايلد وميترلانك، فاشتغلت بترجمة فصول من إبسن «روسمرسهولم» و «عدو الشعب» و «سيدة من البحر».

وأعترف بالفضل كل الفضل لمحمد السباعى (ومجلة البيان) وصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى، وللمنفلوطى، وأنطون الجميل (مجلة الزهور) على تطويع أسلوبى لتفكير العصر وأحاسيسه. وتعلقت بأدب جبران خليل جبران. إلا أن رجلا فاضلا حذرنى لغته، ولغة المهجريين كلهم. ومع ذلك فقد درجت على مطالعة كل ما كان يقع لى من كتاباتهم.

ولم أتعرف على الأدب الروسى حتى تلك اللحظة، وقد تغلبت على فى ذلك الزمان نزعة رومانتيكية حادة لم أتخلص منها إلا بشق النفس، بفضل دراساتى الطبية، ثم العلمية بعدها، وبفضل مطالعة بلزاك وفلوبير والكتاب الروس.

وفى صبيحة يوم من شهر مارس ١٩١٩ ركبنا رءوسنا وهجرنا دروسنا لنخوض غمار ثورة «يحيا الوطن» و «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

وثورة ١٩ فى جيلى هى نوع من مطالع التقاويم، كما نؤرخ بالهجرة، والميلاد. وأشهد لعام تلك الثورة بأننا نمونا فيه، بما يعادل أعوامًا من السنوات المعتادة فى حياة كل غلام، أو مراهق أو شاب.

ومع أن حقبتى الرومانتيكية استطالت إلى ما بعد ذلك العام، إلا أن ما أحدثته تلك الثورة ضمن ما صنعته فى تكوينى هو أنها أخرجتنى عن فرديتى ووحدتى، وأوصلتنى بناس من العالم الخارجى دلونى على

طريق الأدب الروسى العظيم، وهم المرحومان محمد رشيد وزوج أخته محمد تيمور، والصديقان محمود تيمور وزكى طليمات، وعن طريقهم عرفت زين شعراء الشباب أحمد رامى، والثائر الأعظم المرحوم أحمد خيرى سعيد.

كانت لنا اجتماعات دورية فى بيت محمد رشيد يقرأ علينا فيها المرحوم محمد تيمور أطايب الأدب اليونانى القديم، والأدب الروسى، والأدب الفرنسى. ونذهب للاستماع إلى الموسيقى السمفونية بقاعتى الكورسال وسينما كليبر، وحفلات الرباعيات وكبار العازفين. وكانت القاهرة فى أوائل العشرينات تملك اثنين من الأوركسترات الكبيرة، ويمر بها العازفون العالميون زرافات ووحدانا.

وتولى محمد تيمور وأخوه محمود مجلة «السفور» زمانًا. وفيها نشر محمود تيمور أول قصصه. وتولى أحمد خيرى سعيد مجلة «الشباب» وفى هاتين المجلتين نشرت ما قدر لى أن أكتبه منذ سنة ١٩١٩ حتى مطالع العشرينات (وعفا الله عما سلف !).

وبعد وفاة محمد تيمور تشتت شملنا، وتألفت من المرحومين أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين، وإبراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوقى حسن (مد الله فى أعمارهم) وفايق رياض وأندريا جابريل، ما أطلقنا عليه تندرًا وسخرية بنا عنوان «المدرسة الحديثة»

التى انضم إليها يحيى حقى قبيل افتراقى عنها بسبب سفرى الطويل إلى فرنسا بالبعثة العلمية.

وأخرج لنا خيرى سعيد «الفجر» مجلة «الهدم والبناء» ، اشترينا لها مجموعة حروف، حملناها إلى مندرة طاهر لاشين على ما يشبه ألواح العجين، وهى فكرة عجيبة من أفكار خيرى سعيد: «يا عزيزى مادام الحروف معانا، يبقى فاضل المطبعة!» ونشرنا فى «الفجر» مقالاتنا وقصصنا، كما خصصت مقالين لنقد أول كتاب ظهر للصديق القديم محمود تيمور، أظنه كتاب «الشيخ جمعة وقصص أخرى».

تلك حقبة جديرة بفصل خاص. إنما أردت أن أبين هنا الأدوار التى مررت بها - كواحد من أبناء جيلى ليس غير - والتى طورت تفكيرنا ومصادر ثقافتنا، ودفعت بنا فى طريق كان جديدًا طليعيًا فى الأدب المصرى المعاصر.

كنا فى تلك الحقبة - أغلبنا - أبناء جى دى موباسان وبلزاك ودستويفسكى وتورجنيف وتشيخوف وتولستوى. وربما حفت علينا كلمة واحد من الروس العظام وأظنه دستويفسكى، حين قال: كلنا خرجنا من «معطف» جوجل. .

هذه حقيقة أحب أن أذكرها: لم نخرج من ثوب «زينب» ولا من حديث «عيسى بن هشام» وإنما من ترجمات محمد السباعى،

والمنفلوطى، وأحمد حسن الزيات، وأنطون الجميل، والمازنى (صانين) ومن الأصول التى ترجم عنها أولئك، وغيرها.

ويجدر بى ألاَ أنسى مترجمى التمثيليات: فرح أنطون، وإلياس فياض، وخليل مطران.

حفظنا القرآن الكريم أطفالا، فقوم ألسنتنا، وأرهف حسنا بجمال العربية وروعتها. ونشأنا على الأدب العربى نشأة طيبة مراهقين وشبابًا.

ولكن تكويننا روحيًا وعقليًا نَما وَاكْتَمل فى دنيا الأدب الأوربى، على قدر ما طالعنا منه فى اللغات التى نحسنها.

من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية

أول ما تعلمت من فك الخط كان كلمة سحرية، أشبه «بسمسم» الكلمة التى نسيها من اقتحم الكنز فى كهف على بابا. لم أنسها، ولكنها اختفت من كيان اللغة فلم يقدر لى أن ألقاها فى حياتى مرة أخرى، على كثرة ما طالعت من كتب العرب.

تلك كلمة «برّ» بضم الباء وتشديد الراء. «أى قمح» وكان كتاب «التهجى والمطالعة» ذاك محلى بالصور. والكلمة الثانية فيه هى «بط»، وفوقها رسم لذلك الحيوان «القنط» والثالثة «سن»، وفوقها رسم عجيب لا يمكن لطفل أن يفهمه، فلم يكن سن فيل، أو سنة العروسة «يا شمس يا شموسة إلخ. . .»، بل كان الضرس الطبى الذى يضعه لك حكيم الأسنان. . فى كباية.

حكى لى صديق كيف اعتمد أخوه الأصغر على الصور، زاعمًا أنه يفك الخط. فلما وصل إلى كلمة «سن» لم يتعرف على الضرس الطبى فطالع «ينطلونن» لأن الرسم كان أقرب إلى بنطلون منشور فى الهواء.

والكلمة السحرية التى اختفت من اللغة، منذ «تهجيتها» فى طفولتى إلى اليوم، كان قد رسم فوقها ما لا شك فى أنه عود «غلة»، ومع هذا فمازلت اشك فى أن كلمة «بُرَ» تعنى قمحًا، وقد تعنى واحدًا

من نباتات الحبوب، وهى كثيرة، كانت تعتبر «مغرزًا» أى مشكلة فى امتحان النبات العملى بجامعة باريس.

خمسة كتب استقرت فى ذاكرتى مما قرر علينا فى حصص المطالعة بالمرحلتين الدراسيتين: الفوائد الفكرية، والأدب الصغير، والأدب الكبير، وكليلة ودمنة، وأدب الدنيا والدين.

ولقد تعجب حين تعلم أن أهم هذه الكتب عندى، وأعمقها فائدة فى تكوينى العقلى والخلقى كان. . الفوائد الفكرية «من آثار المرحوم عبد الله باشا فكرى، وتنقيح حضرتى عبد الجواد أفندى عبد المتعال، وعبد الله أفندى الأنصارى وسيد أفندى محمد»، ثم تصديق «صاحب الفضيلة حضرة الأستاذ الفاضل، الشيخ حمزة فتح الله».

وليس معنى هذا أننى أنتقص من قدر الكتب الأخرى، حاشا وكلا، ولكن الظاهرة المفزعة هى أن كل كتاب من الأربعة يمسك بخناقنا عامًا دراسيًا كاملا، ننام ونصحو عليه. وأن حصص المطالعة «المؤبد» تعيش فى ذاكرتى كالأرض الخراب، يتردد فى بلقعها صوت الأستاذ وهو يلقى علينا نموذج القراءة بصوته المنغم المنوم.

خذ منها كتابًا عظيمًا هو مستودع الحكمة الإنسانية القديمة فى أسلوب جزل سهل ممتنع: «كليلة ودمنة». ذلك كتاب من كتبى المفضلة إلى يومنا هذا. ولكنه ليس كتابًا يطالع من الجلدة للجلدة. إنه روضة لحكم وأمثال، تقلب صفحاته لتقرأ واقعة هنا، ودرسًا هناك فى السلوك

الفـردى أو الاجتماعى، كتـاب تتزود منه زادًا مقتصـدًا يجلو الفكر، ويبعث على التأمل.

أمـا أن تصحـو وتنـام - فـى حصـة العصـر - ويمضـى الخريـف والشتاء والربيع، ويهل الصيف، فلا تعرف حصة مطالعة بدونه، فذلك نوع من العقاب المدرسى فيما يشبه «اكتب خطبة قس بن ساعدة خمسين مرة».

ثم من يكون ابن المقفع هذا يلازمنا كر الأشهر ومر السنين، بل ما هى تلك الكتب المثقلة بالحكم تكبس على نافوخنا العام تلو العام، «الموسوقة» «المحملة» بالمواعظ وسقة «حمولة» سفن الصعيد بالقلل القناوى.

وماذا وجدت فى «الفوائد الفكرية» موضوع سـخرية البداجوجيين ؟ أعلم - حفظك الله - أنه اسـم على مسمى، وأنه ليس أدبًا، ولا حذلقة لغوية. إنه «مفيد» أولا، يقدم للطفل شحنة طيبة من المعلومات الأساسية عن الأيام والشـهور فى السـنة العربية، والسـنة القبطية، والسـنة الإفرنجية «ويوم الجمعة هو العيد الأسـبوعى للمسـلمين يجتمعون به فى المسـاجد لأداء فريضة الجمعة، ويوم السـبت هو العيد الأسـبوعى لليهود يتركون فيه أشـغالهم ويذهبون إلى كنائسهم، ويوم الأحد عيد النصارى الأسبوعى يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم أيضًا». «والأيام الثلاثة بعد عيد الأضحى تسـمى أيام التشـريق وأيـام منـى، وهى الأيام المعدودات المذكورة فى قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ البقرة - الآية:٢٠٣.

ويحرم صومها وصوم يومى العيدين». «وفى شهر برمودة يدرك القول، وينعقد اللوز، ويحصد الشعير والترمس والحلبة والقمح البدرى وأبو النوم، ويزرع الأرز، ويتوالد النخل. وفيه يجنى الورد المصرى لاستخراج مائه وتجمع الأزهار من أشجار الليمون والنارنج لاستخراج مائها أيضًا. وزهر النارنج هو أجود الأزهار وأعطرها. وفى هذا الشهر يكون أشهر أعياد النصارى المسمى بعيد الفصح، واليوم الثانى منه هو المعروف بيوم شم النسيم، وأول الأيام التى تسمى الخماسين». ومعلومات عن مقاييس الأبعاد والأوزان والمكاييل، وقيمة النقود المشهورة فى مصر: الجنيه المصرى والمجيدى والإنجليزى والمسكوبى و «الوينتو أو البنتو، وهو عشرون فرنكًا، ويساوى سبعة وسبعين قرشًا وستة فضة.. والقرش يساوى أربعين فضة أو أربعين بارة». وقد عرفنا البارة فى طفولتنا باسم عشرة خردة !

وتجىء بعد المعلومات فصول فى الأخلاق: حب الله، محبة الأنبياء والمرسلين، الأب الأم. . آداب الطفل مع أولاد حارته وأولاد مكتبه وغيرهم. . ولا يصح للولدأن يخبر أحدًا بشىء من الأمور التى تقع فى بيته. . وعلى التلميذ إذا حفظ شيئًا من الدروس ألاَ يكون مثل الببغاء. وينتهى الكتاب بفصل عظيم عن «محبة الوطن»: «. . إذا عرفت ذلك وأردت أن تقوم بما عليك من خدمة الوطن العزيز يلزمك أن تبذل غاية اجتهادك فى التعلم وتحصيل العلوم والمعارف. . ومثل لوازم العسكرية

التى هى ضـرورة لحفظ البلاد من تعدى الأجانب عليها، وتملكهم لها واسـتعبادهم لأهلهـا، فإن الوطن إن تملكته حكومة أجنبية اسـتذلت أهلـه واحتقرتهم وأضاعت حقوقهم. . ولا تظـن أن ما ذكرناه من حب الوطن مقتضاه ألاَ يفارق الإنسـان منشـأه، ولا يخرج عنه إلى غيره ولو لمنفعة الوطن كما يعتقد بعض العوام القاصرة أفهامهم. . المحب لوطنه فى الحقيقة من يسـعى فى مصلحتـه ومصلحة أهله، ولو بالخروج إلى البـلاد الأجنبية لتحصيل علـم من العلوم، أو تعلـم صنعة، أو تعاطى تجـارة يجلـب بها لبلاده ما تمس إليه الحاجة مـن حاصلات البلاد الخارجية وبضائعها وآثار فنونها وصنائعها. . إلخ».

أسـلوب واقعى مباشـر، لا تواليت «تجميل» فيه ولا زواق، أسلوب علمـى أطل علينا فى مطلع حياتنا. . ثـم اختفى نهائيًا، وكان علينا أن نـدرس الطب والعلم، وأن نجتاز البحـار والجبال والوهاد لنبلغه بعد عناء. إن صفحة واحدة من هذا الكتيب السـاذج تساوى عندى كل خطب وفود العرب على كسـرى. والأستاذ الذى لم يجد وصفًا لحديقة الحيوان إلا أن يتمثل ببيت:

وكـل غصـن بغصـن صـار معتنقًا مسـرة كاعتنـاق اللام بالألـف

كان كفيلا أن يفسد ذوقنا اللغوى إفسادًا لا أمل فى إصلاحه.

ولا عجب أن يؤدى التزمـت والحكم والمواعظ وأدب الدنيا والدين – ذلك الغذاء الدسم المترف – إلى أن يحبب إلينا الفول والفلافل والبصارة

والعدس، قصص حمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة وعلى الزيبق المصرى ووقائعه مع دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة. كما انصرفت إلى كتب خرافات وأساطير بمكتبة والدى، مثل الكتاب المنسوب لابن إياس «بدائع الزهور ووقائع الدهور» الذى يحكى خلق العالم وإقامة السموات والأراضين وما فوقها وما تحتها، أو كتاب «عجائب الهند، برد وبحره وجزائره» تأليف بزرك بن شهريار الناخداه.

وشهية القراءة تبعثها القراءة، ومن تلك الكتب العجيبة كانت النقلة طبيعية إلى الترجمات الشامية لمغامرات روكامبول وأسرار باريس، واليهودى التائه، وفانتوماس، وأرسين لوبان.

وما يعتم الغلام حتى يتحول، فى محاذاة نموه العقلى، إلى الأدب العربى فيتروض فى «مروج الذهب»، ويرتاد مجاهل «الأغانى»، ويتحلى «بالعقد الفريد»، و «الكامل للمبرد» و «المحاسن والأضداد»، و «المفضليات» و «ديوان الحماسة» وأمثال الميدانى ودواوين الشعر بشرح الزوزنى والشنقيطى.

وفى محاذاة فهمه للغات الأجنبية، ينتقل إلى «الفرسان الثلاثة» و «الفيكونت دى براجلون»، وغيرها من قصص دوماس التاريخى ووالتر سكوت، و «البؤساء» و «نوتردام دى بارى» لفكتور هوجو، ودون كيخوتى لثيرفانتس.

هذا عدا الكتب العربية الحديثة كدواوين عبد الرحمن شكرى والعقاد وخليل مطران وأحمد رامى والكاشف وأحمد محرم، ورسالة طه

حسين فى «ذكرى أبى العلاء» وكتب المنفلوطى كلها، وترجمات محمد السباعى وأحمد حسن الزيات.

وكان لابد أن يحل الوقت الذى أنظم فيه مطالعاتى. وأعانتنى على هذا التنظيم مكتبة «افريمان» وقائمتها المرتبة حسب الموضوعات، وهى تحتوى على أعلام الكتب فى التاريخ والتراجم والقصص والأدب التمثيلى، والرسائل الأدبية فى أهم اللغات. وكان الكتاب منها يباع مجلدًا بسبعة قروش ونصف القرش، لا غير.

وقررت علينا فى السنة النهائية بالمرحلة الثانوية قصة «حياة جيسون وموته»، من شعر وليام موريس، و «قصة مدينتين» لتشارلز ديكنز فأثارت فينا هذه القصة الأخيرة رغبة الاطلاع على أخبار الثورة الفرنسية. أما قصة «جيسون» فقد فتحت آفاقنا على عالم الأساطير اليونانية، وقربتنا إلى «الأوذيسية» و «الإلياذة»، فقرأت هذه الأخيرة فى ترجمات الشاعر بوب، واللورد داربى، وسليمان البستانى. وقدمتنا الإلياذة إلى شعر الملاحم فطالعنا «الإلياذة» لفرجيل، واللوزيادة لكامويتش، و «الفردوس المفقود» لميلتون. وتعثرنا فى مطالعة «الكوميديا الإلهية» لدانتى.

وشجعت هواية التمثيل متابعتنا لأدب المسرح، بدءا من اليونان فالكلاسيكيين الفرنسيين فشكسبير ومارلو وبومنت وفلتشر، وبن جونسون.

والأدب القصصى بعد قراءتنا فى المدرسة لاستيفنسون، ورايدر هاجارد وأنطونى هوب وديفو وديكنز، بدأناه من «توم جونز» لفيلدنج، وانتهينا إلى توماس هاردى، مارين بثاكرى واللورد ليتون وجورج إليوت، وبنات برونتى.

آسف لهذا الإسراف فى السرد الممل وأرجو ألاّ يؤخذ هذا على أنه استعراض أو تفاخر. إنما أحاول أن ألقى ضوءًا جانبيًا على حياة جيلى فى سن المراهقة وما بعدها، وعلاقته بالثقافة الأدبية. ولا أزعم أننى كنت أفهم كل ما أقرأ فهمًا كاملا، بل كنت أشبه بالسائح المتعجل، بهره ذلك العالم العجيب، أبدعته عبقريات القرون. ولقد عدت إلى كثير من تلك الكتب فصححت آرائى فيها وعمقت فهمى لها.

لم أكن وحدى فى تلك الرحلات الذهنية الممتعة. فما إن عرفت الدنيا خارج المدرسة، بعد ثورة ١٩، حتى وجدتنى أجتمع إلى رفاق ذكرت بعضهم فى الفصل الماضى، مروا بتجارب مماثلة فى القراءة والاطلاع. ولقد ظفرت فى محمد رشيد بموسوعة اطلاع مدهشة فى الأدب والفن وكان رحمه الله يتقن اللغات العربية والإنجليزية والإسبانية والألمانية، وافترقنا وقد بدأ بتعلم الروسية.. إعجابًا بلينين.

كما عرفت فى حسن محمود إدراكًا عميقًا لعصر الإحياء الإيطالى. ولفن الموسيقى الأوربية. وعندما التقيت لأول مرة بالمستشار محمد طاهر راشد أدهشنى أن أجده منكبًا على مطالعة.. كل بلزاك.

هــل كانت لى محاولات أدبية خلال ذلــك التحصيل الأهوج ؟ بضع قصائد لم أحتفظ - لحســن الحظ - بشــيء منها، وقصــة طويلة نقلتها عن فيلم في ســينما أوليمبيا عنوانه «الحب والشــرف» أو الهارب من الجندية» تجرى وقائعه أيــام نابليون. وعندما أتممتها أخذنى والدى إلى صاحب له من رجال الصحافة، تصفحها. وفيما كنا نتداول فى أمر نشــرها، علمنا من أحد أعضاء شــلة أبى بأن كاتبًا سبقنى إلى نقل تلك الرواية عن السينما، ونشرها.

إنمــا جاءت محاولاتى الأدبية الأصيلة بعد ثورة ١٩ واجتماعى بآل تيمور، ثم بأعضاء المدرســة الحديثة. وقد بدأتها بأســلوب رومانتيكى عرف فى زماننا باسم الشــعر المنثور، وكان موضع سخرية صاخبة من مدرستنا الحديثة. وكان شالوم داود بن مسعودة فيلسوف تلك المدرسة، وطبيبها المجلى، يســمى ذلك الأســلوب المهجن «النثر المشــعور»، مما عجل بشفائى منه.

ومــا من شــك في أن المرحوم محمــد تيمور هو الذى أثــار فى أخيه محمــود، وفيمــن حولهمــا الرغبة فى معالجــة القصــة القصيرة التى تخصص فيها وامتاز بها إلى اليوم صديقى محمود تيمور.

وإذ بدأت مرحلتى فى القصص بحكايات رومانتيكية، تحمل بعض آثــار جبران، فقــد برئت من حمى المراهقة الأدبيــة، وانتهيت بفضل تشيخوف إلى الواقعية مؤسسة على تجاربى المحدودة بقصر العينى،

وبشطحاتنا الفنية فى رمضان بحى الأزهر، وجولاتنا الليلية فى أحياء الملاهى البريئة وغيرها.

وفيما عدا قصة «السبع الحلاوة»، وهى من ذكريات الطفولة، وقصة «العنبر رقم. .»، وصورة لأديب سكندرى أعجب بها فى وقتها الأخ إبراهيم المصرى، فإن كل ما سودت من شعر ونثر فى ذلك الزمان جدير كل الجدارة. . بالإهمال والنسيان.

ولقد ختمت حقبتى الشعرية سنة ١٩٢٢ بنص أوبرا «ليلة كليوباترا» على رواية قصيرة لتيوفيل جوتييه بهذا العنوان، وقدمتها لمسرح الأزبكية «شركة مصر للتمثيل والسينما» ولحنها المرحوم داود حسنى. وما أكثر ما يسألنى الأصحاب عنها، فأنكر وجودها، ولكنى واثق من أن نصها مدفون بين الكراسات والكتب فى خزانة ما، ولا أنوى أن أطلع على سلم وأعفر نفسى بحثًا عنها. . أهم ما فيها نوع من التحرر الشعرى، والتصرف بالتفاعيل تصرفًا يرسم للموسيقى طريقه إلى تلحينها. واستعدادى لهذا التحرر مرجعه إعجابى بشعر عبد الرحمن شكرى، ثم تمريناتى فى ترجمة الشعر الأجنبى إلى شعر غير مؤسس على العروض العربى، وإنما على إيقاع الشعر الإنجليزى. جربت ذلك فى قصيدة «ليسيداس» لميلتون وبضعة أبيات من مرثية اللورد تنيسون لصديقه آرثر هلام، وعنوانها «ان ميموريام».

وآخر ما كتبت من شعر منثور كان رثائى للمرحوم محمد تيمور، وقد نشر بالسفور فوق إمضائى بعنوان «مرسياس»، واكتفت الصحيفة بكلمة «مرثية» تحت العنوان. وواضح من عنوانها أنها تقليد مراهق لقصيدة «ليسيداس»، وقد حملتها إشارات كثيرة إلى الميتولوجيا اليونانية، مثلما جاء فى مرثية جون ميلتون.

هذه الصورة لجيلى تبدو مشوشة، لأن حقيقتها كانت مشوشة، ولن أرتكب خطأ الشيوخ فأزعم بأن كنا وكنا. نحن لم نكن شيئًا مذكورًا. والفرق بين جيلنا والأجيال التى تلتنا يتلخص فى كلمة واحدة: «الجامعة المصرية» وكلية الآداب بها.

ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن، حياتنا الذهنية والعاطفية مغامرات لا نظام فيها ولا قانون يحكمها. أما الأجيال التالية فقد وجدت فى الجامعة (كلية الآداب) من ينظم حياتها العقلية، ويقنن لها.

وأقرب ما وصلنا إليه نحن فى اللغات القديمة كان. . جذور اليونانية واللاتينية وقد أفادتنا أعظم الفائدة فى دراستنا الطبية، والعلمية، فحسب.

بينما مهدت الجامعة المصرية لطلبتها، و بخاصة فى سنواتها الأولى، سبيل تحصيل الطلاب لغير قليل من تلك اللغات القديمة أساس الحضارة الغربية فى أهمها وأجملها. ولو قدر لى أن أعيد حياتى

التربويـــة لما ترددت فى أن أبدأ بتعليم أربع لغات: العربية واليونانية واللاتينية. . . . والموسيقى، قبل أية لغة أخرى !

والخطـأ الأول فـى تعليمنا هـو قلة ما كانت تسـمح لنـا المدارس بتحصيله. مازلت أزعم أن السـنين العشـر الأولى فـى حياة المصريين يذهب أكثرها ضحية لفلسفة البداجوجيين.

وما فتئت أنصح الشـباب، الذى يسألنى النصيحة: لقد ضيعت عليك المدارس فى عشر سنين من حياتك الكثير من مقومات العقل والوجدان. اجتهد فى أن تعوض ما فات. . فى السنين العشر المقبلة، بل العشرين، بل الثلاثين.

قصة شغفى بحضارتنا الأولى

يجرى قلم الكاتب بجملة تنم عن فكرة طارئة وَمَضَتْ أثناء الكتابة، يعبر عنها بصورة سريعة وهو غير مدرك لأبعادها. مثال ذلك قولى فى الفصل السابق «ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن» لم أدر وأنا أضع تلك الصورة الكلامية أننى أسبر غورًا (اعرف ما بداخله) بعيدًا فى تكوين حياتنا العقلية والوجدانية. فالقرصنة هنا تعنى الخروج على القانون والنظام. وقد خرجنا حقًا على نظام تعليمنا. وقوانينه البداجوجية، عندما غامرنا فى معارج الأدب، وركبنا عباب فنون لم تكن وزارة المعارف تعترف بها فى ذلك الزمان البعيد، بل كانت تعتبرها، كالفراغ والجدة «الغنى»، مفسدة للمرء أى مفسدة.. كالموسيقى والتمثيل والتصوير. ولقد حكيت فى فصل سابق كيف مزق المدرس رسمًا بالفحم على ورق الجرامون، حاولت فيه نقل صورة من لوحة أو كتاب.

كنا نوعًا من الخوارج على تعليمنا عندما زهدنا فى الأدب الصغير والكبير، وأدب الدنيا والدين، وما فيها من حكم ومواعظ، ورحنا ننهل من آداب العالم عربية وغربية، غثها وسمينها، بقدر مداركنا، وما حصلنا من لغتنا واللغات الأجنبية.

ولم تكـن دروس التاريخ والجغرافيا فى مرحلتنا الابتدائية، بخير من دروس اللغـة العربية. فالجغرافيا، تلك المادة الجذابة، ومن أحب العلوم إلى نفوسـنا فى قابل - أول -الحياة، نزلت بنا «كائنة» عظمى حتى كدت أسقط بسببها فى الشهادة الابتدائية.

لأن المدرس لم يكن يعنى بأكثر مما يسميه شرح الدرس، وهو لا يعدو تفسـيرًا قاصرًا لما فى الكتاب المقرر. فتركنا المدرسـة الابتدائية ونحن لا نعرف عن الجغرافيا إلا أنها أداة تعذيب تتألف من أنهار وحاصلات وبلدان، تختلط بمعلومات عن الشـمس والقمر والفصول، والبحر والبر والجبال والرياح.

وكما كان النحو قواعد تحفظ دون فهم لمنطقها الأساسـى، فقد كانت الجغرافيا معلومات مرصوصة لا أسـاس لها فى وعينا القاصر. ومصيبة هـذا النوع مـن التعليم أنك، إذ لا تفهم، تلجأ إلـى «الصم» وإذا أثقلت ذاكرتـك بالحفظ الآلى، جاءت إجابتك كالمشـى على الصراط، قد تعبر الهوة، وقد تسقط فى الجحيم.

وربمـا بدا التاريخ أقرب منـالا من الجغرافيا، لمـا لهذه الأخيرة من حاجة ماسـة إلى ألمعية الأسـتاذ وخبرته، وإلى تمويئه بالأدوات التعليمية الضرورية. وهذه لم تكن تتعدى فى مدرسـتنا بضع خرائط، وكرة أرضية ماسـحة. وهل توجـد مادة أقرب إلـى الأفهام من مادة التاريـخ ؟ ومـع ذلـك فقد فجعنـا فى مدارسـنا الابتدائيـة بتاريخ

للمصريين القدماء يصيب الولد بعقدة أو جرح نفسي «تروما» ، من ناحية أسلافه العظام، عندما يقتصر التاريخ على سرد أسماء ملوك تنتظم فى أسرات، أسماء كحجارة من سجيل، لا حياة فيها. لأن الماضى، وبخاصة الماضى السحيق. إنما يحيا بحضارته لا بحفظ أسماء ملوك، وذكر وقائع ملفقة، تختلط فيها خرافات هيرودوت، بشذرات من «العهد القديم».

وكان من حسن حظنا بالمدرسة الثانوية أن يصحح وعينا بالجغرافيا، وفهمنا للتاريخ، أساتذة ممتازون حقًا، بشخصيتهم أولا ثم بما أكملوه فى خارج البلاد من تعليمهم.

بل كان لمدرسى الجغرافيا والتاريخ أثر عميق فى توعيتنا الثقافية من جراء عنايتهم بنا خارج قاعات الدرس، فيما عرف بالجمعيات العلمية (النشاط المدرسى حاليًا). فقد كانوا ينظمون لنا الرحلات والمحاضرات لنتعرف على حقائق جغرافية وتاريخية، لا علاقة لها دائمًا بما تلقينا أو نتلقى فى قاعات الدرس.

لاشك أن متخصصى التربية يقدرون معنى هذه الحقيقة العجيبة: وهى شغف التلميذ بكل ما ليس درسًا، وحصة، وامتحانًا، وقرفًا. أفلا توجد طريقة بيداجوجية، ومدخل إلى التدريس، ينسى التلميذ همه وغمه، ويخدعه عن نفسه. وعما يهدده فى امتحانات آخر العام، بأن يتحول التدريس إلى نوع من الهواية الحرة ؟

لقد استطاع مدرسو الجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية أن يوائموا بين دروسهم، وبين المعارف العامة عندما شجعوا فينا الاطلاع الحى، بالرحلات والجولات، وبثوا فينا حب الكتب، عندما تحررنا من ابن المقفع والماوردى والمواعظ، ووسعوا آفاقنا وفتحوا لنا متنزهات الفكر، ومغانى الفن.

وأرجو أن أحدثك فى فصل مقبل عن أثر أستاذ التاريخ، المرحوم محمد عبد الرحيم فى تعلقنا بالمسرح. يكفى أن نعرف الآن بأن ذلك الأستاذ الفاضل، كان مؤسس جمعية أنصار التمثيل، ورئيسها الأول.

كان محمد عبد الرحيم مدرسًا ممتازًا وضع بين أيدينا كتابًا من تأليفه، ليس ذنبه أن يجىء جزء كبير منه خاصًا بتاريخ آل عثمان. فقد كان هذا مقررًا علينا، ولا تنس أن آخر دروس تلقيتها فى التاريخ كانت فى عام ١٩١٤ - ١٩١٥، وأن زوال السيادة الاسمية لتركيا حدث فى أواخر ١٩١٤، وأن الشعور القومى فى البلاد كان متيمًا بحب الدولة العلية، والبادشاه، ظل الله على الأرض. والحق أن دراسة إمبراطورية آل عثمان كانت تثير فينا ذلك النوع من الإعجاب البدائى بالفتوة العسكرية، وبما حققه الأتراك العثمانيون من التوغل فى أوربا حتى أسوار مدينة فينا.

المهم أن محمد عبد الرحيم حبب إلينا دراسة التاريخ، كما أن عبد الرحمن فخرى وعبد الملك سعيد صالحانا على الجغرافيا. ومع أن معارفنا فى التاريخ المصرى القديم كانت فضيحة الفضائح، ولم نعد إليه

فـي المرحلة الثانوية، فقد أخذت معلوماتنا عنه تتجدد فى صورة حية نتيجة لنشاط جمعياتنا العلمية بالمدرسة السعيدية. وكان الاشتراك فى كل جمعية منها لا يتعدى خمسة قروش فى العام. وإذا كان قصور ذات اليد قد حال بينى وبين اشـتراكى فى جمعية «الشيش»، فإن ماليتى لم تقصر عـن الالتحاق بجمعيات التاريخ، والجغرافيا والعلوم، والرسـم والتصوير الفوتوغرافى، والاشـتراك فى الرحلات. وقد اسـتمر نشاطى فـى كل تلك الجمعيات طوال السـنين الأربع، بـل تمكنت أنا وبعض إخوانى من إضافة جمعية جديدة إليها، وهى جمعية التمثيل.

كان عبـد الملك سـعيد، قدس الـرب روحه، منـارة العرفان لنا فى رحلاتنا. وهو الذى تول إنشـاء «مجلة المدرسـة السعيدية» . كان يعد لنا شـروحًا عن الغابة المتحجـرة والجبل الأحمر فـى جولاتنا بجبل المقطم، وعـن القلعة، والمسـاجد والبيوت الأثريـة والكنائس القبطية بمصر العتيقة، وأهرامات الجيزة، ومقابر سـقارة ومقابر وآثار الأقصر فى البرين. كانت أحاديث مرسلة أمام الأثر الفنى. ولا أزعم أن عبد الملك سعيد كان يؤكد بنوع خاص النواحى الجمالية – فقد كنا نعيش فى عصر مـا قبل الطوفان ! – وإنما كان يوجه اهتمامنا إلى النواحى التاريخية. إلا أن الجمال الفنى كفيل وحده بأن يثير فى النفس أحاسـيس دفينة، تظهر فيما بعد. فأعجوبة الفن هى لمسـته القدسية الأولى، ونفاذه إلى الوعى الباطن دون ترجمان.

وكان عبد الملك سعيد يشجع فينا تدوين المذكرات عن جولاتنا ورحلاتنا، ويختار من بينها أكثرها دقة وتوفيقًا، فيمون صاحبها بالكتب - عرفت عن طريقه دليل بيديكر، وتاريخ بريستد في طبعاته الأولى ! - ويطلب إليه أن يعد محاضرة يلقيها على زملائه في قاعة المكتبة أثناء الفسحة الطويلة وسط النهار.

كما كان هو وزملاؤه - تلك المجموعة الممتازة من المدرسين التي اشتهرت بها المدرسة السعيدية في زماننا - يعدون لنا محاضرات في مناسبات علمية أو أدبية كذكرى شكسبير (مرور ٣٥٠ عامًا على مولده)، والثورة الفرنسية، وصناعة الخزف والزجاج على مدى التاريخ، واكتشاف أصقاع الأرض، وتسخير قوى البخار إلخ، يستمع إليها - من شاء - بعد نهاية اليوم المدرسي، مصورة بالفانوس السحري.

ولقد فاتني وأنا أسرد أمثلة من الكتب التي تصور اتجاهاتنا في الاطلاع العربي والأوروبي أن أشير إلى كتاب قرأته في السنة الثانية الثانوية، بالإنجليزية أولا، ثم علمت فيما بعد أنه مترجم إلى العربية فاقتنيته، وأعدت مطالعته معربًا.

كان ذلك الكتاب - إلى محاضرات أساتذتنا خارج الدرس، وفي مواجهة الآثار - أول ما حبب إلي الاطلاع على تاريخ مصر القديمة، إذ حقق لي الحياة فيها بخيالي، مثلما عشت عصر لويس الثالث عشر، والملكة «آن» النمسوية والكاردينال ريشيليو، ودوق بكنهام،

وكيف دافع دارتنيان الغسقونى، وآتوس وبورتوس وآراميس (الفرسان الثلاثة) عن شرف ملكتهم، بسيوفهم البتارة ضد مؤامرات الكردينال، أو كما وعيت عصر الحروب الصليبية فى قصة الطلسم لوالتر سكوت.

ذلك الكتاب هـو قصة «وردة» (رواية تمثل أخلاق وعادات المصريين فى عهد رعمسيس الثانى؛ وترسم للقارئ نظام حكومتهم وما وصلوا إليه من التقدم فى العلوم والمعارف. أبرزها من الآثار القديمة، وأوراق البردى، للدكتور جورج إيبرس الألمانى، وعربها محمد مسعود، أحد محررى جريدة «المؤيد» كما جاء فى صدر الترجمة العربية، المنشورة بمطبعة الآداب، بشارع محمد على.

حصلت على الترجمة الإنجليزية لرواية «وردة» فى طبعة طاوخنتز، ذلك البيت السباق إلى الخير فيما يعرف اليوم فى فرنسا بكتب الجيب، وعند الإنجليز، بذات الكعوب الورق، وقد ضاعت فيما ضاع من كتبى، هى وترجمة محمد مسعود.

ولابد أن يكون ثمة ملك خير قاد خطواتى منذ أيام قليلة إلى بائع كتب قديمة أخرجت من بينها نسخة من هذه الترجمة. ولا عذر لى مع ذلك فى أن أغفل ذكر «وردة» ، فالأصل الألمانى موجود عندى منذ أعوام طويلة، ولم يختف فى أكداس الكتب، بل هـو ماثل أمامى بمجلداته الثلاثة، طبعة لايبزيج سنة ١٨٧٩، أرى كعوبها المذهبة، وسط مجموعتى الصغيرة من الأدب الألمانى.

مـا كان أسـرعنى إلى إخراجهـا، لضاهاتها علـى ترجمة المرحوم محمد مسـعود. ولا أحسـب الكاتب المشـهور راعى حرفية الترجمة، ولكن الشـهادة لله بأنه لم يترك هامشًـا من هوامش إيبرس فى تفسير ما يستغلق على القارئ من حياة أسلافنا. وإن أهم ما وضحت عنايته به هو صياغة الترجمة فى أسلوب عربى جزل سليم، لا يظهر فيه افتعال الترجمة أبدًا.

وحـرى بنا أن نشـير هنا إلـى أن محمد مسـعود فى الفرنسـية، ومحمد السـباعى فى الإنجليزيـة، كانا قطبى الترجمـة إلى العربية فـى زمانهمـا. وأن تمكنهمـا مـن اللغتـين - الأجنبيـة والعربيـة - أخلاهمـا من عقـدة الضعة، فكانا يتخذان حريـات فى التصرف قد لا يرضـى بها المتزمتون، أو غير المطمئنـين إلى قدرتهم فى اللغة التى يترجمون عنها.

ولا بأس من أن أورد هنا بعض ما قدم به الشاعر خليل مطران لرواية «وردة» :

«ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية، مما طبعت عليه من التزام الوصف الحق ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يسـتطاع معه تجسـيم المعنى الخفى فى شـكل مألـوف وفى تصوير حركات النفـس فى كل حال من أحوالهـا، أطوع بكثير من لغتنـا لأغراض الكاتب فيهـا، وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار.. فالذى سرنى فى «وردة» أننى قرأتها

عربية كأننى أقرؤها فرنسوية، وعجبت لما أوتى مُعَرِّبُها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكات الإنشاء، الجامعة علمًا، الراسخة متانة، اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة.. فليكن ختام ما أذكره عن كتاب صديقى محمد أفندى مسعود، حث كل مصرى على اقتنائه، فإنى قلما وجدت أحدًا من هؤلاء الإخوان الكرام مطلعًا على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب فى جمعه له، وإهدائه إليه».

«وإنه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها، لا تدرك حاضرها، ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها» .

وليست قصة «وردة» مع هذا من أعلام الأدب الألمانى، إلا أن أهميتها لنا هى فى تصوير ما يتخيله عالم كبير بالآثار وكاتب ناضج الخيال، عن الحياة المصرية القديمة. ولقد دهشت وأنا أتصفح الرواية أخيرًا أننى مازلت أذكر بعض مناظرها حية أمامى. فى بيت المحنط، حيث حملت الأميرة «بنت آنات» الطفلة وردة إلى أهلها، وأسرعت تضرب باب المعبد تستنجد بطبيب لإسعاف وردة فيخرج إليها الشاعر بنطاؤر: «ولما فتح باب الهيكل برز منه كاهن فى مقتبل الشباب، وعنفوان العمر، تدل هيئته على رفعة مقامه، وسمو مكانته. فاستفهم من القوم عن السبب الذى جاء بهم إلى هذا المكان فى وقت العبادة. فتأهب «بعاكر» للكلام، وخشيت ابنة الملك أن يبادر الكاهن بكلام فظ يستاء

منــه فنهضــت قائلة: أنــا بنت آنــات كريمة الملك رعمســيس، وهذه الجالســة في الهودج «نيفرت» زوجة مينا الراسخ في الشرف والنسب. إلخ إلخ. .»

ثــم هذه الفقرة في مجمع الكهنة عن الشــاعر بنطاؤه: «فقال رئيس المنجمين: لا ريب في أن الآلهة أجزلوا العطاء لهذا الشاب وأفاضوا عليه المواهب، ولكني أنست منه استبدادًا في الرأي أزعج خاطري، وانشقاقًا عــن المذهب المتبع.. وقد أودع في أشــعاره أفكارا أو ســوانح.. تخالف القواعد الدينية المقدســة، كان ينبغي عليه التدبر والتروى قبل وضعها حيث يخشى أن تكون داعية لكشف أسرار مذاهبنا، وإضاعتها في أفواه العامة. وإني أســوق على سبيل الاستشــهاد بعض أشعار له يخشى من ضررها في المســتقبل، ما دمنا نتغنى بها استحســانًا، ويحفظها عامة الشعب، وخاصته شغفًا بها وافتتانًا، وها هي ذي: :

«هــو الواحد الدائم القهار المنفرد بالخلق، المبدع لجميع المخلوقات، المحيــط علمــه بجميع الأســرار. . مــن تأمل بعين فكــره في مظاهر الكائنات، شاهد فاطرها – خالقها – في كل صورها ومعانيها، واستدل على أنه الواحد الأحد الذي لا يحول ولا يزول» .

ويكتــب إيبرس في الهامش «هذه الأشــعار من النشــيد الذي نظمه بنطــاؤة في تمجيد «آمون» وقد وجــد مكتوبًا على البردى المحفوظ الآن بمتحف بولاق، وترجمه غريبو وسترن».

ولقد فتحت توًا كتابًا فرنسيًا فى تاريخ الأدب الألمانى فوجدته يقول عن جورج إيبرس:

«عالم بالآثار المصرية، ولد فى برلين سنة ١٨٣٧ وأحيا أسلوب الرواية التاريخية التى أبدعها والتر سكوت ولقد وقفت رواياته التاريخية مدى عشر سنوات جنبًا إلى جنب والقصة الريفية، والرواية الواقعية. وقد صور فى «وردة» (١٨٧٦) عصر رمسيس الثانى، وفى «الشقيقات» عصر البطالسة. وفى «أنا إنسان» عصر الشهداء، وفى «سيرابيس» تدمير مكتبة الإسكندرية، وفى «عروس النيل» (١٨٨٦) الفتح الإسلامى لمصر. . وفى هذه الكتب عنصران لا يأتلفان تمام الألفة. فنحن نعجب بقدرة الكاتب على الوصف، ولكننا نأخذ حذرنا عندما يحاول طبخ المعارف الأثرية فى مغامرة خيالية. وحرى بنا ألاّ ننسى أن جورج إيبرس ابن القرن التاسع عشر، حتى لنشاهد كهنته المصريين، وكأنهم جلسوا إلى دروس هيجل وسبينوزا».

يدخل هواة المسرح

نسمع – ولم نر – أن الجماهير فى أوربا تعبر عن عدم استلطافها، أو عن غضبها، بإلقاء الطماطم والبيض الفاسد على المغنى، أو الممثل أو ما شابهه. ولكنى شهدت طريقة بلدية عبر فيها الجمهور عن تذمره من نشاز الغناء بقذف المسرح «بالبياض . . بياض الحائط»، لا بياض البيض ! فكيف كان ذلك ؟ قال زعموا أن مسرح الكلوب المصرى كان سربا، أو قاعة تحت الأرض بخان جعفر، تدلف إليها على مستوى الأرض فتجد نفسك فجأة فى أعلى التياترو، أو تنحدر على سلم السرداب، فإذا أنت فى الصالة. ورواية الليلة هى «عايدة» (راجع أعمال سليم نقاش، اختيار وتقديم الدكتور محمد يوسف نجم)، تقلد فيها فرقة حى الحسين ما يجرى على مسرح الشيخ سلامة حجازى، قياساً مع الفارق فالفرقة فقيرة، واليد قصيرة، والأربعة أو الخمسة الذين يقومون بدور الكورس يكاد يغنى كل منهم بطريقته، على ليلاه، وعايدة كثيرة ألحان الكورس، أو كما جاء فى «أسماء الأشخاص وبيانهم» : جوقة كهنة عبدة أصنام، وجوقة رؤساء حرب مصريين، وجوقة شعب مصرى، وجوقة بنات متخصصات بخدمة أمنريس إلخ (وعدد كل جوقة حسب الإمكان والمناسبة).

وحين يضيق أعلى التياترو بالنشـاز وما إليه، يأخذ بعض جمهوره يخلـع بياض الحائط، ويرجم به المسـرح، دون إيـذاء، فالبياض يبلغ طرف المسـرح متفركًا، ويسـقط على الخشـبة رملا. ويتبادل المنشدون والجمهـور فصلا من مختارات السـباب، وتجرى مصالحة واتفاق على أن ينتظم الكورس بقدر طاقته، وأن يبذل السـميعة بعض سماحتهم، علـى قدر طاقتهم، ويبدأ الكورس: «ايها الفتاح هبنا نعمتك – ورحيم أنت أظهر عظمتك» إلخ.

وكم أود أن أسرد بعض ذكريات الطفولة عن مسارح الأحياء: الكازار بالماوردى، ودار السلام والكلوب المصرى بخان جعفر، وكيف كنا نعود إلى البيت «ونلغمط» وجهنا بسخام «بسواد» الورق المحروق ونصرخ فى ديدمونة أمام المرآة: المنديل.

وانتهـى عبـث الصبيان ذاك بالشـهادة الابتدائيـة، ويزعم الناس حولنا أن تلك الشـهادة خولتنا الحق فى لقـب أفندى، مما أضفى على دخولنا المرحلة الثانوية شـيئًا من الجد والتزمت، والعزم على الإقلاع عن الجمباز والكرة ومطالبة ديدمونة بالمنديل.

ثم يحدث أمر يصعب تصوير أثره علينا، وهو أن نسـمع، ونحن فى سنة التحضير لشهادة الدراسة الثانوية قسم أول (الكفاءة)، بأن أستاذ التاريـخ محمد أفندى عبد الرحيم سـوف يظهر على المسـرح الحقيقى بالمدينة. ثم يعرض علينا ضباط المدرسـة تذاكر بأسعار مخفضة لنشاهد

أستاذنا فى رواية «دافيد جاريك»، وهو من أشهر رجال المسرح فى التاريخ البريطانى.

وانتقلت المدرسة السعيدية ذات مساء - أو ذات ماتينيه، لا أذكر - ناظرًا ومدرسين وإداريين وطلبة إلى مسرح برنتانيا (فيما أظن). وكان من أغرب الأشياء حقًا أن نرى محمد عبد الرحيم فى ملابس عصر الشاعر بوب، والدكتورين جونسون وبرنى، وعلى رأسه باروكة الشعر الأبيض، ذات «الزعرورة والفيونكة»، وهو يخطر على المسرح بسترته الحمراء المزركشة بالقصب، والدنتلا تهفهف حول رقبته ورسغيه. وعجيب أن أذكر اسم البطلة التى أحبها الممثل جاريك وهى مس آدا انجوت، بل أن أذكر من القصة كيف اصطنع الممثل الكبير حياة صريع الغوانى والخمر حتى تقلع بنت الأرستقراطية عن تعلقها بالمشخصاتى، وتنصرف إلى خطيب من اللوردات.

واشترينا نسخة من الرواية. وعليها صورة أستاذنا فى دور دافيد جاريك، وهو رافع الكأس، يترنم بأشعار نواسية.

ولا أرى إلى اليوم مصدر العجب والدهشة فى أن ترى على المسرح شخصًا تعرفه، فى ملابس التنكر ! ولو لم نتعرف على صوت أستاذنا، ونتبين ما فى عينيه من حَوَل، لصعب علينا أن نرى فى داخل أردان القرن الثامن عشر.. أستاذ التاريخ المحترم.

وكانـــت تلك الليلة مولد جمعية أنصـــار التمثيل، وبقدر علمنا: كان محمد عبد الرحيم منشئها، وأول رئيس لها.

كان ذلك العام الدراسى (١٩١٤ – ١٩١٥) آخر عام لنا بدار السعيدية بالجيزة، كمـــا كان آخر العهد بمحمد عبد الرحيم فى الدنيا، وكأن قد أصابتـــه العين، فمرض طويلا أثناء الدراســـة، وعـــاد إلينا قرب نهاية العام، ودخل الفصل أعجف ذابلا، يحمل وســـادة ويتحامل على نفسه حتى يبلغ كرســـى المنصة، فيضع عليه الوســـادة، ويلقى درســـه جالسًا طول الوقت.

انتقل محمد عبد الرحيم فى صيف ذلك العام إلى رحمة الله.

وانتقلت مدرستنا فى العام التالى إلى قصر جناكليس (مقر الجامعة الأمريكية حاليا)، عندما استعارت الجيوش البريطانية مقرها الأصلى ليستقبل جرحى حرب الدردنيل وغاليبولى.

لم يعـــد التمثيل لعبة من اللعب، بل هو أمر ذو شـــأن عظيم. ألم نر ناظرنا المســـتر شـــارمن وأســـاتذتنا يهرعون عن بكرة أبيهم، لمشـــاهدة أستاذنا محمد عبد الرحيم يلعب دور البطل ؟

فلـــم تمر علينا إجازة الصيف حتى كنـــا نمثل مع زملاء لنا فى بيت أحدهم بجنينة مميش رواية «فى ظلمات القصر الشمالى» ، وهى تمثيلية مطبوعة، ميزتها الوحيدة النافعة أنها تخلو من أدوار الإناث.

قضينـا عامين بقصر جناكليس، وقد نشـط زملاء «القصر الشـمالى» فى ناحيتين: الرسـم بالفحم، والتمثيل. وكنا نجتمع فى فسحة نصف النهـار الطويلة لإجراء البروفات فى فصل من الفصول، لا على تمثيلية كاملة، ولكن علـى مناظر من لويس الحادى عشـر، وبالإنجليزية من هاملت وماكبث.

وذات يوم عاب علينا واحد من أسـاتذتنا اهتمامنا بتلك الروايات الأجنبيـة. واقترح أن نضيـف إلى برنامج تدريباتنـا.. منظر وفود العرب على كسـرى. فأحرجنا أكبر إحراج حيال مجموعة من خطب تقعقع بالشنان، وتدمغ كل شعوب الأرض بصفات من أمثال «المنحفة» و «المقشـرة» !! ولـم يخلصنا من الورطة سـوى اختيارنـا لمنظر من تمثيلية اسـمها «امرؤ القيس» تأليف واحد من أساتذة اللغة العربية بمدرستنا، حرص على أن يجىء أسلوبها على مستوى المعلقات السبع أو العشر.

وعندما اسـتأذنا الناظـر فى إقامة حفلتنا النهاريـة بقاعة المكتبة، طلب منى نسـخة أعمال شكسـبير، وأجرى قلم رقابتـه الصارمة على بعض فقرات مما اخترنا، لما فيها من مجازات غير مؤدبة.

ثم منعت من الاشـتراك فـى الحفلة، عقابًا لى على نسـيانى موعد مبـاراة الجمباز لسـنة رابعة فصل رابع، ولم يسـمح لـى بغير إلقاء قصيدتى فى الرفق بالحيوان.

ولم تتقـدم جمعيتنا التمثيلية فى جهودها إلـى أبعد من ذلك. بيد أن نشـاطنا انتقل إلى خارج المدرسة حينما دلنا أهل الخير على جمعية تمثيلية، عرفت فيها ممثلها الأول الأخ زكى طليمات. وكانت تعد رواية ميلودرامية «تاجر الأرواح» تأليف مدرس ثانوى. وأذكر فى اجتماع لنا أن اعتـرض البعض على ما يمكن أن يتطرق إليه معنى العنوان، من أنه تاجر «الملبس والفونضان»، وكان يعرف فى زماننا باسم تاجر الأرواح. وضحكنا ممن اقترح علينا تسـمية الرواية «تاجر النفوس» عندما ظهر أن كلمة النفوس تعنى تاجر المبار وفضلات السلخانة!

وأذكـر منظرًا فى ختام الرواية يفتح فيه الشـرير قمطرًا تنطلق منه رصاصة ترديه، وإذا بالمسـدس المفروض أن يطلق من الكواليس فى تلك اللحظة. . يضرب عن العمل (كالعادة !)، مما اضطر الشـرير أن يصعق بدون سبب ظاهر !

كمـا أذكر زميـلا دخل المنظر الأول (وهو صالون) وقد نسـى القبعة العالية مسـلطحة إلى الخلف فوق رأسـه، ولا ضير من هذا فقد كانت معارفنا عن بروتوكول الخواجـات قليلة. وإنما واجه الزميل جمهوره ببزة البونجور، والبنطلون الرمادى.. وقد انفرجت مغاليقه.

كانت تلك مناظر مألوفة فى تشـخيص الهوة، ناهيك بالشوارب المستعارة تنعكس فردة منها وتميل بزاوية قائمة ما بين الشفة والفك، وباللحى المنهارة على النحور والصدور، يصر الزملاء على إعادة لصقها. . دون جدوى !

ومثلت جمعيتنا رواية «شاترتون» لألفريد دوفيني (ترجمة المرحوم عباس حافظ)، وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز (ممسرحة في إنجلترا)، وقد اشتركت في الروايتين وبأدوار صغيرة، تدخل في عداد الكومبارس الناطق، أما في «تاجر الأرواح» فقد أسند إلى دور. . الملقن، عندما مثلتها الجمعية على مسرح بحلوان.

وفي عام ١٩١٧ شاهدت الشيخ سلامة حجازي لآخر مرة في رواية «عظة الملوك» وسمعت فيها لحنًا صينيًا جديدًا للشيخ تغنيه الجوقة برئاسة عبد العزيز بشندي على كلام عجيب أذكر منه «شن شِشِنْ كاره شن شن» !

وكانت عضويتي بالجمعية التمثيلية سبيلا إلى حضور بروفات فرقة عبد الرحمن رشدي الأولى. وهناك رأيت سليمان نجيب لأول مرة، وعرفت الممثل الكبير عمر وصفي، كما حضرت بروفات فرقة جورج أبيض عندما انضم إليها الصديق زكي طليمات، ورأيته يمثل دور دوق دي نيمور في «لويس الحادي عشر»، ورأيت هناك أيضًا السيدة روز اليوسف لأول مرة.

لم يغير هذا النشاط الخارجي شيئًا من نظام حياتي الداخلية، ومحاولات تطويع الأسلوب للتفكير الحديث بترجمة مختارات من الشعر الإنجليزي، وبعض مناظر من تمثيليات سبقت الإشارة إليها.

ولم نعد إلى المسرح، في مرحلة دراستنا العالية، إلا كمترجمين لتمثيليات ضعيفة: «هارولد» للشاعر اللورد تنيسون، و «غادة ليون»

للروائى اللورد ليتون. و «إخوان السلاح» لكاتول منديس. وقد رأيت فى هذه الأخيرة الأخ فتوح نشاطى يخطو خطواته الأولى على المسرح، مع نادى المعارف، الذى أخرج أيضًا رواية «غادة نيون». وتقاضيت جنيهًا واحدًا عن كل من الروايتين «مقدم أتعاب». «دون مؤخر أكلوه علينا» !

وترجمنا ومصرنا فارص موليير «طبيب رغم أنفه» ليمثلها نادى مدرسة الطب، وكنا قد انتقلنا فى هواياتنا إلى الموسيقى، فلم نشارك فى التمثيل بحفلة النادى السنوية، بل حملنا بعض عبء البرنامج الموسيقى . .

ولندع حكاية الموسيقى إلى الفصل التالى.

الموسيقى الصعبة

قد يكون مفهومًا أن تعيش عمرك، وتطالع الآداب العالمية فى لغاتها، أو أصدائها فيما بين أيدينا من كتب عربية، وأن تقبل على الفن التشكيلى فى أحدث ظواهره وآخر صيحاته. ولكن من هم أولئك الذين يتحررون من ربقة الألحان المشجية المبكية، والأغانى الصادحة «تلعلع» بها حناجر ذهبية، ليستمعوا إلى موسيقى الخرس البكم، تؤديها آلات مصلحة تصليحًا طاردًا لأرباع أو أثلاث أو أخماس النغم، لا تكاد تسمع منها لحنًا واحدًا «عليه الطلا»، دون أن تقتحمه ألحان أخرى يختلط حابلها بنابلها فى هرج ومرج لا يعرف له أول من آخر. مزامير وصفافير من فضة أو خشب، وبوقات من نحاس، وطبول «كقزانات المسمط»، وزخمات أوتار تذبذب تحت لمسة أقواس طوال وقصار، أو تغمز بالأصابع، وزول يوليك عرض أكتافه، ويهوش بعصبية، يزعم بأنه يرقص عليها الآلات، وهو وحده الراقص بها. ثم ما تلك التمثيليات تؤدى طوال الوقت بالغناء المزعج، يتبارزون فيها صادحين، ويعالجون سكرات الموت بالصوت «فاقعين»، يختلط فيها نشيد الجماعات بألحان الأفراد، وتمتزج هذه بعضها ببعض مشوشة مخلطة. وما تلك الأغانى تجأر بها حناجر رجال قدت من صلب، وتولول بها نسوة سمينات يشكون لطوب الأرض من ظلم أو هيام،

وتطالبن في غضب بالثأر والانتقام. وما هى تلك الأسماء الأجنبية ما بين ألمان وطليان، ومسكوف وأسبان، يتشدق بها طلاب الجامعات وبعض أساتذتهم ؟

وإذا شئنا أن نعرف كيف نزلت بنا نازلة الموسيقى الأوربية تلك فى آخر الزمان، فلنتهم الأسطوانات والمسجلات، وكلا البرنامجين الأوربى والثانى، وما أثاره بعض أساتذة الجامعات فى نفوس طلبتهم يجتمعون حول البك - آب في المدرجات يستمعون إلى ضروب من الشرح تغرر بهم فيما تزعم من تحليل لتلك الموسيقى الأجنبية، ثم يقال لهم: إن الاستماع إليها ظاهرة حضارية لم تعد مقصورة على أهل الغرب وحدهم، وبأن هواتها انتشروا على طول آسيا وعرضها، ومن الشمال الإفريقى حتى أقاصى أو أدانى قارتنا الناهضة.

ثم يجىء أعضاء أوركسترا القاهرة السمفونى، والكورال المصرى ضغث على أبالة[1]، يخدمون على الفرق الروسية والإيطالية واليوغوسلافية، يشاركون فى أوزارها الفنية، ويتفردون بأداء ما يسمونه السمفونيات والكونشرتوات والفانتازيات والقصيد السمفونى.

ويضرب المتخلفون أكفًا بأكف، مستعيذين محوقلين[2]، يلعنون موجات الحضارة التى جرفتنا فى تيارها المخيف لتبعدنا عن قواعدنا ومراسينا.

(١) ضغث على إبالة (أى عبء على عبء).

(٢) أى يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكن، نحن شباب ما بين الحربين، وغلمان الحرب العالمية الأولى، نحن طليعة ضحايا الحضارة الغربية فى هذا القرن العشرين، ماذا أودى بنا إلى هوة موسيقى الخواجة بيتهوفن، والهر باخ أو موزار، والسنيور فيفالـدى أو فردى، والمسيو برليـوز أورافيل، والدكتـور بورودين، والبكباشـى البحرى رمسـكى - كورسـاكو ؟ فلم يكن الفونوغراف فى زماننا سـوى خشخشـة وخرفشـة، والإذاعة فى عالم الغيب، وكانت الجامعة أملا لن يتحقق وشيكًا. ولم تقم المربيات الأجنبيات على تربيتنا حتى تعوج ألسـنتنا وتبلبل أحاسيسنا. نشـأنا فى الأحياء البلدية على الطقاطيق والتواشـيح والأدوار والبشارف والسـماعيات، ورددنا ألحان الشـيخ سلامة والخلعى وداود حسنى وسيد درويش. فما الذى غرر بنا، وحبب إلينا الموسيقى الغربية فى أرفع وأصعب منجزاتها ؟

و الجواب ميسـر سهل لمن يقرأ لنا، ويتابع عوامل تطورنا من شغف بـالآداب العالمية، وهواية للتمثيل والتصوير، وما ندين به لأسـاتذتنا فى المرحلة الثانوية من تفتح أذهاننا لما وراء حدودنا من فكر ومعارف. بيد أن أسـتاذًا واحدًا من هؤلاء لم يجر لسانه بكلمة الموسيقى - وكانت شـبه محرمة علينا - ولا باسم من أسماء عظمائها. ولعل قراء المنفلوطى يذكـرون رواية «تحت ظلال الزيزفون» لألفونس كار، وما يرد فيها من إشـارة إلى المدعو بيتهوفن وألحانه. ولعلهـا كانت أول مرة أرى فيها ذلك الاسم مكتوبًا، وإن كنت قد سمعت به عرضًا من قبل.

كانت الموسيقات العسكرية تتبادل كراسى كشك حديقة الأزبكية: موسيقى الجيش المصرى عصر الجمعة، وموسيقى البريطانيين عصر الأحد. فمن لا يذكر الصول عامر غزال وبرامجه تداول بين الموسيقى المصرية والموسيقى الغربية. أو الويلش باند وهى تقدم افتتاحيات وفانتازيات (أى منتخبات) من أشهر الأوبرات، إلى أدوار من الموسيقى الخفيفة، مثل مارشات سوزا، و «على ضفاف نهر سوانى»، وأوبريتات جلبرت وسوليفان ؟

وكانت دور السينما الكبيرة وسط المدينة تعمل فى نفوسنا عملها الخفى، عن طريق مجموعاتها الموسيقية تجلس تحت الشاشة، وتعزف مختارات توائم الأحداث الجارية فى صمت كامل على الشاشة. ولم يكن يوجد بالقاهرة أو الإسكندرية من فندق كبير أو كازينو أو مشرب شاى دون أن يستخدم عددًا من خيرة العازفين، الواردين من كونسرفتوارات إيطاليا، غالبًا، يلتفون حول البيانو ليؤدوا نماذج طيبة من الموسيقى الغربية.

من «تحت ظلال الزيزفون»، وحول كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية، وفى ظلام السينما الصامت يسنده أوركسترا قد يبلغ عشرة أفراد أو يزيد، تنبهت فينا حاسة جديدة، تختلف اختلافًا كبيرًا عن إحساسنا بأغانينا وألحاننا وكأننا خلقنا خلقًا جديدًا.

إلى أن طالعنا ذات مرة على باب سينما كليبر – ركن عماد الدين وما كان يعرف فى زماننا بشارع بولاق – إعلانًا عن شىء اسمه

الأوركسترا السمفونى، وبرنامج وضعت فى أوله هذه الكلمات: بيتهوفن: السمفونية السابعة.

وكان هذا الأوركسترا يتألف من العازفين المجيدين بالفنادق والسينمات ومشارب الشاى، لا يجدون متسعًا من الوقت لاجتماعهم إلا بين الحادية عشرة صباحًا والواحدة بعد ظهر يوم الأحد. وكنا طلبة بالمدارس العالية، لا تقيد حريتنا لحضور المحاضرات، فارتكبت أول زلة عندما قررت أن أزوغ من محاضرة الكيمياء بما كان يعرف بسنة أولى طب. وهكذا قدر لى أن تعتدى موسيقى بيتهوفن وما إليها على محاضرات الكيمياء، يوم الأحد، وكان ذلك أول المنحدر إلى الخلل فى دراستى الطبية الأولى، حين حرصت على الاستماع كل صباح أحد إلى الحفلات السمفونية بسينما كليبر، يقودها ميشيل بولياكين، أو بقاعة الكورسال الكبيرة بقيادة إدجار بونومى.

كنت وحدى فى تلك المغامرة التى حاولت أن أستدرج إليها بعض زملائى، فطار أولهم منى عندما أخطأ فى قراءة عنوان افتتاحية تأليف ليتولف، اسمها «كليوباترا» فطالعها «كوليوبترا»، إذ كنا ندرس فى ذلك الوقت تقسيم الحشرات بابًا من أبواب علم الحيوان.

ومال ثانيهم على، وأنا مستغرق فى الاستماع إلى كونشرتو مندلسون للفيولينة ليقول: هلا حضرت حفلات نادى الموسيقى الشرقى ؟

فلم أكذب خبرًا وصاحبته إلى حفلة النادى ذات مساء بعمارة قرب الأزبكية، وهناك رأيت وسمعت أقطاب الموسيقى الشرقية الأصيلة من

مؤسسى ذلك النادى طويل العمر، فعرفت أن طريقى وطريق زميلى يفترقان، وأن كنوز الموسيقى العربية شىء جدير بأن يعتنى به، ويدرس ويحفظ ويؤدى على أصوله. ولكن على ألاّ يقف فى طريقى نحو التعرف على تلك الموسيقى الغربية العجيبة، والتزود بكل ما تقع عليه يداى وعيناى وأذناى من شئونها.

وبدأت - مع زميل الطفولة، حسن فتحى - دروس الفيولينة على أستاذ إيطالى، كان العازف الأول بمحل شاى مشهور بشارع بولاق.

وكعادتى فى الاستعانة بالكتب لمعالجة كل مشكل ذهنى لى، انطلقت أطالع كل ما يقع لى من كتب عن الموسيقى والموسيقيين، وكان أولها كتابًا استعرته من دار الكتب تأليف جول كومباريو عن «الموسيقى وقوانينها وتطورها» وثانيها تاريخ الموسيقى للمؤلف نفسه فى ثلاثة مجلدات كبيرة، وغير ذلك من تراجم كبار الموسيقيين.

ولقلة فرص الاستماع فى ذلك الزمان (على العكس من الوقت الحاضر، حيث تنتشر المسجلات الموسيقية)، سبقت معارفى الكتابية خبراتى الفعلية بالموسيقى ومع ذلك فقد سمعنا نحو ست سمفونيات لبيتهوفن، وسمفونية لكل من هايدان وموزار وشوبرت وشومان ومندلسون وبرامز وسيزار فرانك، وبضعة كونشرترات وأغنيات فنية «ليدر» لشوبرت وشومان، وقصائد سمفونية لسان صانس وشهر زاد لرمسكى - كورسا كوف و «ليلة على الجبل الأجرد» لمسورجسكى

و «فى دهاس آسيا الوسطى» لبورودين، وأهم الافتتاحيات الإيطالية، وافتتاحيات موزار و «روسلان ولودميلا» و «كامارنسكايا» لجلنكا، ومازلت أحتفظ ضمن أوراقى بكثير من برامج الموسيقى التى سمعت فى ذلك العهد البعيد.

ثم انطلقت ثورة ١٩ لتخرجنا من عالمنا المدرسى الضيق. وتمهّد لنا لقاء المجموعة الطيبة من رواد الثقافة التى ذكرت بعض أسماء أصحابها، وإذا بأغلبهم من عشاق الموسيقى الرفيعة مثلنا، وهذه ظاهرة عجيبة: أن تسلك طريقك وحدك إلى بعض وعى تلك الموسيقى، ثم تلتقى بشباب جدد سلكوا الطريق نفسه. ومنذ تعرفى على محمد رشيد وآل تيمور ومحمود عزى وحسن محمود وفؤاد مرابط وشوقى بكير وطاهر العمرى والدكتور محمد ولى ويوسف جريس ومحمود شكرى أصبحنا نرتاد الحفلات الموسيقية فئة صغيرة بطرابيشها وسط بحر من الرءوس العارية، أعضاء الجاليات الأجنبية، مع قلة من سيدات وآنسات الأسر الكبيرة خلف النقاب الأبيض، نشأن بمدارس الراهبات، ودرسن البيانو فى خدورهن.

عادت الفرق الأجنبية تحيى مواسمها بدار الأوبرا، والكورسال فكان أول ما سمعت من أوبرات: «حلاق أشبيلية» لروسينى، و «كافاليريا روستيكانا» لماسكانى بالكورسال. ثم «لوريلاى» لكاتالانى، و «شمشون ودليلة» لسان صانس، و «مفيستوفيليس» لبويتو، و «تانهوبزر» لفاجنر، و «توسكا» و «مدام بترفلاى» ليوتشينى.

وغـدت القاهـرة مركـزًا ثقافيًـا هامًا، يمر بـه كبـار العازفين، ومجموعـات الموسـيقى العائلية (داكاميرا)، من أوربا الوسـطى، ومن إيطاليا وفرنسا، فتعرفت على الرباعيات الوترية، وما يقدم فى حفلات العزف المنفرد.

وليس معنى هذا أننا أهملنا موسـيقانا القومية، بل إنها لعلامة من علامات طريق النهضة وشـهادة مخلصة لنوابغ الموسـيقى المصرية فى أوائل العشـرينات، أن هواة الموسيقى الأوربية الرفيعة هم الذين أحبوا وآزروا وأخلصوا لذكرى الرواد الأوائل فى تطوير الفن الموسـيقى: كامل الخلعى وداود حسنى، وسـيد درويش. ولقد شبت طفولتنا على ألحان الشيخ سـلامة حجازى، وأدوار عبده الحمولى ومحمد عثمان. ويطيب لى أن أذكر بالخير مدرسـتنا الحديثة فقد كانت أول جماعة تقيم حفل تأبين لسيد درويش بتياترو حديقة الأزبكية.

مرد هذا إلى أننا من أول من أدرك ووعى الخطوات الأولى فى طريق تحرير موسـيقانا القوميـة، وتطويعها لضروب جديدة فـى التعبير. وأتيح لنا هذا الوعى نتيجة لخبرتنا بما كان يقدم فى مصر من موسيقى المجموعات الصغيرة والأوركسترا والأوبرا.

وهذا ما يسميه بعض المتجنين علينا «عقدة الخواجة». وليست هناك عقدة، ولا خواجة، وإنما هو الإيمان بكل ما هو عظيم، وصادق وجميل فى الحياة.

أفندية بحق وحقيق

أعجب رتبــة في دنيانا قبل الطوفان كانت رتبة «أفندى»: لم تعرف لهــا براءة، ولم تحدد الفئة التى يحــق لها هذا اللقب. ومع ذلك كنا نســمع بأن قاضى الإســلام التركى، سـيد الجهلاء (راجع ابن إيــاس)، يحمل لقب أفنــدى، وأن ولى عهد ســلطنة البادشــاه يلقب بالأفندى حظرتلرى، وخديــوى مصر كان لرعاياه المخلصين «أفندينا»، وبنــت البلد إذا تزوجت لابــس بنطلون قالت: «لفنــدى بتاعى» وكان غلمــان الأزقة إذا رأونا في طريقنــا بالبنطلون القصير، تندروا قائلين: يا واد يا فندى.

وقد لا يعرف الكثيرون أن كلمة أفندينا ترد فى السلام المصرى القديم (وهو الســلام الخديوى فالسلطانى فالملكى)، الذى زعموا أنه من تأليف فردى. وهأنذا أذيع السر المهول: «أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام»، وتذكرنى هذه الكلمات الجوامع ببيت الشعر المشهور:

ربابــــــة ربــــــــة البيــت تصب الخل فى الزيت

وسنة الارتقاء جعلتنى أشهد زمانًا أصبح فيه كل الناس بهوات إلى درجة أن زميلا حلو الدعابة اســتطاع أن يخلصنا من البكوية العمومية بلباقــة فلم نكن نتخاطب فيما بيننا إلا بقولنا: «فهمت الفولة يا معالى

الباشا» ؟ وأن ما لا يعرفه أبناء الجيل الحالى هو أن الرتب كانت موضع سخرية أغلب أهل جيلى الثائر. وقد أكد الزمان سخريتنا عندما سمعنا فى أواخر ه بمعالى الست، ورفعة الهانم، وفى أوائله بوالدة باشا !

قيل لى مثلا بعد الشهادة الابتدائية إننى آنفًا، وعلى سن ورمح، أفندى. وإذا بمدرس اللغة العربية فى أول يوم لنا بالمدرسة السعيدية وقد رأى بعضنا بالبنطلونات القصيرة، يوجه كلامه إلى ضابط المدرسة: لا يا حمدى أفندى «دول تجيبوا لهم مرضعات بقى» !

ثم أكدوا لنا بعد البكالوريا أننا أ فندية بحق وحقيق. . ولم يكن أمر ذلك بأكثر صحة من سابقه.

ولكن أعجب شىء فى زماننا هو أن الناس كانوا يعتبرونك دكتورًا منذ يوم قبولك بمدرسة الطب المصرية، وكنا أبناء الحضر سواء فى هذا وأبناء الريف. وحدثنى زميل من الريف عن اضطراره، قبل أن يضع قدمه على عتبة قصر العينى إلى اقتناء سماعة، وبعض الأدوية، استجابة لأهله وجيرانه فى البلدة.

ولم يكن أقل عجبًا، حتى وقد تخرجت فى مدرسة الطب، أن يستدعينى صديق من أهل الفن لأعود مريضة من أهله، ولما يمض على تخرجى أسبوع، وأعترف بأننى اضطررت إلى التعجيل بطبع تذاكر الروشتات، ومراجعة بعض جرعات المادة الطبية التى توقعت أن أصفها. فسوف أكشف على المريضة، وهذا شىء خبرته، وسأجريه على أحدث

وسائل الكشف الطبى، وسأتمكن من التشخيص التفاضلى الذى أبلغنا أسراره على لسان نوابغ الطب فى مدرستنا. أما أن أضطر إلى إخراج دفتر من جيبى لأنقل عنه جرعات الأدوية التى أركب منها الروشتة، فذلك أمر لا يجوز، بل يعتبر فضيحة لزميلى الفنان أمام أهله !

عندما عينت عميدًا لأول كلية علوم بالإسكندرية لم تفت على أقسى الأعباء التى حملتها أنا وزملائى فى إنشاء تلك الكلية عام ١٩٤٢، أن أراقب الطلبة الجدد، وهم ينتقلون من قيود التعليم الثانوى إلى حرية التعليم الجامعى، وأن أقارن بينهم وبيننا على مدى ربع قرن، أى منذ التحقنا بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩١٧. هل كانت الظاهرة نفسها ؟ لا أظن، فقد انتظمنا فى التعليم العالى قبل ثورة ١٩، ودخلوا هم بعدها، وبعد غيرها من القلاقل والمظاهرات والاضطرابات، طلابًا للحرية والاستقلال. نحن دخلنا المعاهد العالية قططًا عمياء، ودخلوها هم شبابًا أبلى، وكافح فى سبيل الوطن، ربما أكثر مما كافح فى سبيل العلم والمعرفة.

وفدوا هم على الجامعة فتية وفتيات، وفى زماننا هاج الكتّاب وماجوا فى الصحف، إذ علموا بأن فتاة مصرية أصيلة. . التحقت بشركة التليفونات. وكانت الفتاة تحجز وراء نقاب أسود أو أبيض، وتجلبب بملاءة سوداء، قبل أن يسمح لها بالالتحاق بمدارس المعلمات فقط!

وإذا كنا قد عرفنا الحرية فى مدارسنا العالية، كما عرفوها فى الجامعة فقد كنا نعيش فى مجتمع لا نساء فيه غير أهلنا الأقربين، وغير خيالات، وظلال تلمع فيها عيون ساحرات، خلف النقاب، وخلال شيش النوافذ الموارب.

ومع ذلك لم يكن الفرق كبيرًا فى كلية علوم الأربعينات. فالفتيات ما فتئن يتعثرن فى مشيتهن، ويعتبرن الفتيان بعابع، ويمارسن التكتيك الحربى المعروف بالقنفذ، حين كن يتجمعن فى صف أو صفين بالمدرجات، أو يقعدن فى ساحة الجامعة متكأكئات، والطلبة يحومون حولهن كالذئاب، باحثين عن ثغرة بين أشواك القنفذ اللاذعة ! .

لم أكتشف جديدًا بعد اقتحام الطالبات لأسوار الجامعة، فقد ظل الحب هو الحب، على البعد، و «بنت الجيران» ما لبثت اصطلاحًا غراميًا عرفناه فى شبابنا، ذلك المخلوق البعيد جدا، نتحدث إليه بالإشارات الضوئية فى الليل، وبالكتابة الهوائية بالنهار. ونسترق لحظات محمومة خاطفة، يحكمها - أو يرفرف عليها إذا فضلت - الطهر والعفاف من الجانبين، مما أضفى على الحب فى زماننا رومانتيكية حامية متفجرة، أشبه بما كنا نطالعه من أشعار العذرى والمجنون، أو ألفريد دى موسيه، وألفونس دى لامارتين.

ولقد أصطحبت فى زمانى صديقًا من الأسر الكبيرة، خطب فتاة من بيئته، فلم تكن ثمة وسيلة لنرى خطيبها إلا أن يوضع لها فى بنوار

بأحد المسارح، وتجلس الخطيبة فى لوج خلف نقابها وستائر الدنتلا، لتفحصه على بعد عشرين مترا من أعلى إلى أسفل، وآمل أن يكون حياؤها قد حال بينها وبين استعمال المنظار المقرب. أما صديقى فأشهد أنه لم يسمح له حتى بصورة للخطيبة !

وصورت فى قصة قصيرة زواجًا تم بين فتاة أتمت تعليمها بالمدارس الأجنبية، وهوت الموسيقى، وأتقنت العزف على البيانو، زفت إلى شاب من الأعيان توقف عند شهادة الكفاءة، كل هواياته تدور حول ماديات الحياة. صورة تخيلتها ولم أنقلها عن واقع خبرتى. . ثم عرفت بعد سنوات طويلة بوقائع أثبتت لى أن خيالى فى تلك القصة لم يبتعد كثيرًا عن الواقع.

وإذا لم أستطع أن أنفذ إلى نفوس أبنائى بكلية العلوم لأعرف أثر انتقالهم من المرحلة الثانوية، وانتظامهم معًا فى الجامعة، فلا أقل من أن أصور واقعى أنا منذ أكتوبر ١٩١٧ وأنا أمضى فى شارع مدرسة الطب لأطرق مرحلة الدراسة العالية.

قيل: لا تمش فى الأرض مرحًا فإنك لن تبلغ إلخ إلخ. . وكأن هذا القول موجه إلينا، فقد كنا ندلف إلى باحة المدرسة نافشين كالدنادى ونجتمع حول تمثال كلوت بك منشىء مدرستنا فى النصف الأول من القرن الماضى، لنناقش مسائل علمية عويصة فى الطبيعة أو الكيمياء، أو علم الوراثة، أو فكرة النشوء والارتقاء، وكان يضاف إلى دروس

الإعدادى، «المادة الطبية» كلهـا، ونمتحن فيها. وبعض مقدمات فى علم التشريح الإنسانى، ولا نمتحن فيها، انتظارًا لانتقالنا إلى السنة الثانية. ذلك لأن مدى السنة الأولى كان يمتد إلى خمسة عشر شهرًا، فكانت تلك الدراسة الإضافية تعتبر كسبًا للوقت، واستعدادًا للدراسات المقبلة.

ومع أن سوء حظنا قد أفقدنا – بسبب الحرب – أساتذتنا الألمان، فإن كتبهم – ومنها ذلك الكتاب القيم للأستاذ لوس «مقدمة إلى البيولوجيا» – كانـت بين أيدينا، وتلاميذهم قاموا على دراستنا. ولعل حبى لعلم الحياة قد نشأ منذ اللحظات الأولى بمدرسة الطب.

وأعـرف بعد ذلك أننـى أحببت دروسى الطبية كلهـا، ومازلت أحمل لها أقوى مشـاعر العرفان بالجميل. فهى التى قومت فىّ العقلية العلمية، وهى التى أعانتنى على فهم الإنسان حين أوقفتنى على دخائله التشريحية والفسـيولوجية والمرضية. وقد بدأت رحلتى حول الإنسان بالحيوانـات الدنيا، حتى انتهيت إليه. ثم عدت إلى الحيوانات الدنيا عندما انتقلت بعد سـنوات إلى دراسة الحياة فى البحار والمياه العذبة. فكأننى رحلت ذهابًا وإيابًا، أو صعودًا ونزولا، حول الإنسان، وما قبل الإنسان فى التسلسل الطبيعى للحياة على ظهر البسيطة.

ولكن، ماذا كان حال الأدب والفن، وهل اصطدم بالدراسة العلمية ؟

أى نعم، كان صدامًا عنيفًا جدا تمزقت له شـخصيتى، وسـبب لى بعـض الخلل فى خط دراسـتى، مما أخرنى عن الصـف الأول. وبعد

ثورة ١٩١٩ التـــى أبعدتنا عن الدرس عامًا كاملا، عدت إلى مدرســتى حطامًــا آدميًــا، يتنازعه حب الفــن والأدب، والفروض القاسـية التى تتطلب من طالب الطب كل وقته.

ولم أشــعر بميل خــاص نحو علاج الأمــراض، إلى جانب شــغفى بالبحث عن أســباب المرض، فى دراســة العلوم التى يبنى عليها الطب العلاجى، وهى التى تعرف فى كلية الطب بالأقسام الأكاديمية. ولم أك أفسر لنفسى المعنى الداخلى البسيكولوجى، لهذا الشغف، حتى عرفت فيما بعد أنه يمثل الاتجاه المعروف نحو البحث العلمى.

إنمــا بقى لى من دراســتى الطبيــة حب الفحص والتشــخيص لكل مــا يعرض لــى من شــئون الحيــاة، فرديــة أو اجتماعية، سياســية أو فنية أو أدبية.

إن العلم والرومانتيكية صديقان لدودان. ولقاؤنا الأول بالأدب والفن كان رومانتيكيًــا فــى أعنف ما تكــون الرومانتيكية، وهــى أقرب إلى المرض من الصحة. وبفضل الدراسة الطبية، وممارسة العلوم فيما بعد، استطعت أن أتخلص من المرض الزومانتيكى رويدًا.

ولــم أكن وحدى فريســة الرومانتيكية بمدرســة الطب، فقد عرفت زملاء لى هناك يتعشــقون الأدب والفن، أذكر منهم على ســبيل المثال لا الحصر، المرحومين: ناظر مدرســتنا الحديثة أحمد خيرى ســعيد، والشــاعر مرهف الحــس، إبراهيم ناجى. عرفت ناجــى من بين طلبة

الدفعة السابقة علينا، وتبادلنا الكتب والاطلاع، وأنصتنا إلى صوته المتهدج يتلو علينا أشعاره، وكأنه يرتجلها فى التو والساعة. وأشهد لدفعتى، والدفع القريبة منها، أن تخرج منها فئة ممتازة فى تخصصها، ممتازة فى الفن والأدب أيضًا. يكفى أن أذكر من بينها من أملك التحدث عن نبوغه، وهو أول دفعتنا، صديقى الدكتور محمد كامل حسين، العلامة الباحث، والجراح الكبير، والأديب الفذ.

إننى إذ أستعرض فى ذاكرتى تلك السنين الرائعة، وما عركناه فى ثورة ١٩ وقد تحولنا من الدراسة إلى السياسة فى بيت وفدى كبير، كان واحد من أبنائه رئيسًا للجنة الطلبة العليا، وكان ابنه الآخر زميلا لنا، نتلقى فى ذلك البيت تعليماتنا اليومية، من الذهاب كل ليلة لنخطب الآلاف المجتمعة بالأزهر الشريف، قلب الوطنية النابض، إلى الانتظام فى المظاهرات، أو مقابلة الزعماء، ومناقشتهم فى ضرورة مقاطعة لجنة ملنر، أو مراقبة من نخشى أن يخالف الإجماع منهم . .

وإذ أفكر بانكبابى على دراسة الموسيقى، ومواصلة مطالعاتى فى الأدب والفن والتاريخ، وإقبالى على معارض الفن التشكيلى (معرض الربيع الأول)، وتشتت حالى بين كل ذلك ودراسة الطب، وأزمة الحب التى انتابتنى وكادت تهد من كيانى، لا أرى وصفًا لتلك الحقبة فى تكوينى إلا بما توصف به الملاحم. فقد كانت حقًا أول ملحمة من ملاحم حياتى، لم ينقذنى منها سوى تخرجى فى مدرسة الطب سنة ١٩٢٣،

والتحاقى بمستشـفيات الرمـد الأميرية، وكانت مضـرب الأمثال فى حسن الإدارة والنظام، ونموذجًا للكفاية العلمية والفنية.

حقبة مليئـة بمقومات الحياة النابضة المكافحة، وشـبوب العاطفة نحو الوطن، ونحو الأصدقاء، ونحو المرأة. . .

ولا أدرى بأيهـا أبدأ، وربما كان من الخيـر أن أقف عندما قدمت، إلا أن أجمع كل ذلك فى صورة واحدة، فالعاطفة المشـبوبة لا سبيل هنا إلى تصويرها إلا بالاسـتناد إلى وقائعها العامة، لا إلى الفردية فيها. فليـس الهدف من هذه الصحائف تاريخ حياة فرد بعينه، وإنما تصوير الظروف التى نشأ فيها جيلنا كله.

يا عم حمزة إحنا التلامذة

بعد أيام من التحاقى بمدرسة الطب المصرية، توفى السلطان حسين كامل، وتقرر أن يمشى فى جنازته الأربعة الأول من كل فرقة، فكنت واحدًا ممن شيعوا جنازة سلطان مصر.

ماذا كنت أعرف عن السلطان الراحل؟ لقد دخل علينا فى المدرسة السعيدية، وأنا بالسنة الثانية، فى حصة مطالعة إنجليزية، وكان عدلى باشا يكن وزير المعارف حينذاك يصحب السلطان. وكلفت أن أطالع أمامهما صفحة من رواية «جزيرة الكنز» لروبروت لويس ستيفنسون وطلب منى الناظر شارمن أن أترجم ما قرأت إلى العربية. وقد التزمت بالنص الذى طالعت، من حديث القرصان الباحثين عن الكنز، يحكى على لسان الغلام جيم هوكينس. فسألنى السلطان ذو الطربوش الأحمر الفاقع، المائل بزاوية منفرجة، والردنجوت الرمادى، سألنى بصوت أجش: «هم مين دول؟» فأدليت إليه بمعلوماتى عن الكابتن جون سلفر رئيس القرصان وجماعته وصراعهم فى سبيل الحصول على الكنز..

لم نكن ندرى بما جرى فى مدرسة الحقوق من سوء استقبال السلطان، وهى الواقعة التى سرد حكايتها تفصيلا، الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تأريخه لثورة سنة ١٩١٩. ولو عرفنا لترددنا فى ذكر وقائع

القرصنـــة، فقد تحمل كل تأويل بحضرة الســـلطان الـــذى كان الوطنيون يتهمونه باغتصاب عرش ابن أخيه المعزول.

مـــاذا كنت أعرف عن الســـلطان حســـين؟ ذهبت غلامًـــا بالجلابية والصنـــدل إلـــى ميـــعدان عابديـــن لأشـــهـــد مـــن بعيـــد الاحتفـال بتوليتـــه عام ١٩١٤، وكل ما أســـمع بـــه هو أن الخديو عباس قد عزل، وأن بريطانيا أعلنت الحماية على مصر، وولت عم الخديو المعزول. وقد أذكـــر لمامًا أننـــى طالعت إعلان الحماية ملصقًا على الجدران، وســـمعنا بأن القصيدة التى يغنيها الشيخ سلامة فى رواية «هاملت»، والتى تبدأ هكـــذا «عم خئون وأم لا وفاء لها»، قد اســـتبعدت، أو أن الرواية ذاتها سحبت.

كما عرفنا بأن الدولة المحتلة كانت تنوى إقامة أغاخان سلطانًا على مصر، وأذكر أننى قرأت منشـــورًا لزعيم المسلمين «كذا» أغاخان، يوضح للعالم الإسلامى معنى انضمام دولة الخلافة «تركيا» إلى أعداء بريطانيا ويحل المسلمين من الولاء للدولة العثمانية.

ولا أحسبنى كنت أفقه من المعانى المختفية وراء كل تلك الوقائع أكثر من أن الإنجليز هـــم أعداؤنا بالأمس، واليوم، وغدًا، وأن انتصار ألمانيا يعنـــى نهاية الاحتلال البغيض. وما أكثر مـــا كنت أحلم أحلام اليقظة – التـــى لم تتحقق إلا بعـــد ١٨ يونية ١٩٥٦ – باليـــوم الذى يختفى فيـــه من بلادنا كل أثر لتلك الأجنـــاد ذات الوجوه الحمراء. أما حكاية

الحماية فلم يكن فى استطاعتى التكييف القانونى لها. فالاحتلال هو الاحتلال، بحماية أو بغير حماية. وهذا ما عنيته عندما قلت فى فصل سابق بأننا دخلنا المدارس العليا قططًا عمياء.

ولم نلبث طويلا بمدرسة الطب حتى تفتحت عيوننا، ووعينا ما حل بنا فى آخر المطاف، ومعنى الانتقال من الاحتلال الغاصب، إلى الحماية المضروبة علينا بقوة السلاح. وأحسسنا بأنين الجنين فى أغنية الصعايدة بفرق العمال المصريين فى صحراء سينا، وطريق بير سبع «آه يا عزيز عينى – وأنا بدى أروح بلدى! بلدى يا بلدى – وأنا بدى أروح بلدى» وما فيها من «نوستا لجيا» إلى ضفاف النيل، وقد انتزعوا منها قسرًا. وتكشفت لعيوننا ما كان يعانيه الشعب المصرى فى الريف والحضر من اعتداءات ومصادرات وخطف للعمال والغلال والجمال، لخدمة ميدان المعركة البريطانية التركية فى فلسطين.

وحلت سنة ١٩١٨ وتوالت أخبار انتصارات الحلفاء على دولتى الوسط، فهدنة ١١ نوفمبر، ثم مؤتمر الصلح بفرساى. وهنا تواترت الأخبار، وتبعتها معلومات صحيحة عن أن أهل الرأى من كبراء المصريين يجتمعون، ويقابلون المندوب السامى «كذا» يطالبون بسفر وفد مصرى إلى مؤتمر الصلح، وأن الوزارة المصرية كانت قد طلبت أن يسافر رئيسها رشدى باشا، ومعه عدلى يكن باشا للتفاوض مع وزير خارجية بريطانيا فى إنهاء الحماية وإعلان استقلال مصر.

لـم يكـن يظهر من هذا شـيء فى الصحـف أو كان يظهر مسـتترًا بأخبـار محلية وإنما هـى أخبار كانت تجيئنا نقلا عـن الأفواه أو فى وريقـات نتداولها فى المدرجات. ولا أنسـى من بينهـا خطابًا طويلا، بلغة إنجليزية ممتازة، كتبه شاب مصرى، سكرتير المستشار القضائى البريطانى، يبين له أول مرة أسمع وأقرأ فيها اسم وليم مكرم عبيد.

وفـى مطالع العـام التالـى ١٩١٩، أصبحـت الأخبـار أكثر دقة، والتوجيه أوضح، وبدأنا نسـمع بأسـماء الزعماء، وعلى رأسـهم سعد زغلـول باشـا وكيـل الجمعيـة التشـريعية المنتخب، وبأن السـلطة البريطانيـة الحامية رفضت إقامة صـوان يخطبون فيه، ورفضت الإذن بالسفر للوزارة، وللزعماء، ومررت علينا أوراق المطالبة باستقلال مصر لنوقع عليها. وهى الوثيقة المشهورة بتفويض الوفد المصرى لتولى شئون قضية الاستقلال.

وفجأة، فى صباح ٩ مارس تفجرت العاطفة المكبوتة منذ نحو أربعين عامًا، وبخاصة منذ سـنوات الحرب الكبرى، إذ جاءنا الخبر بأن سعد زغلـول وصحبه قد أخذهم الإنجليز من بيوتهم إلى مكان مجهول. وما إن بدأنـا نتدبر فيما نحن فاعلون، إذ هجمت مظاهرة من طلبة المدارس العليا الأخرى «الزراعة والمهندسخانة والحقوق» على مدرستنا، تدعونا للانضمـام إليها. فتصدى لها ناظرنا الإنجليزى الدكتور كيتنج، وهجم الطلبـة عليه، وأوقعوه أرضًا. وخرجنا حشـدًا كبيرًا صاخبًا، واتجهنا

إلى وسط المدينة وإذا فوانيس النور تكسر، وعربات الترام تهشم وتحرق، وما هى إلا أيام حتى نعرف بأن ما حدث فى القاهرة تكرر فى مدن مصرية أخرى، وأن خطوط السكك الحديدية اقتلعت، والمظاهرات قامت فى كل مكان احتجاجًا على اختفاء زعيم الأمة وصحبه. وسمعنا بعد ذلك بأن الوزارة استقالت، وأن لجنة الطلبة العليا قررت الإضراب إلى أجل غير مسمى وأمر هذا ميسر فى كل المدارس. إلا مدرسة الطب، إذ إن امتحان الدور الثانى للسنة الأولى طب وصيدلة يجرى فى مارس بالذات. فاجتمعنا بمكان مَا فى حى المنيرة ونظمنا أنفسنا لإقامة حصار كامل حول جميع الطرقات المؤدية إلى المدرسة، حتى نمنع من يحاول الوصول إلى لجنة الامتحان ممن لم يبلغهم قرار الإضراب العام. وكان الموضع المحدد لى على رصيف شارع القصر العينى بحذاء المنيرة. وأشهد أنه لم يمر بنا فى صباح الامتحان أكثر من طالب أو اثنين، وضعوا مذكراتهم فى جيوبهم، وانضموا إلينا دون مناقشة. وكنا نعرف عن يقين أن الأسئلة معدة، والناظر واقف بالمرصاد ليمكن من يصل إلى اللجنة من أداء الامتحان، وليجرى قراره فى فصل المتخلفين. ولم يحضر فى ذلك اليوم طالب واحد، وألغى امتحان الدور الثانى.

ولا أسطر هنا تاريخ ثورة ١٩، فأمرها مشروح بالتفصيل فى أسلوب رصين هادئ بكتاب الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى. يكفينى أن أستعرض صورة عامة لطريقة قيامنا بالمظاهرات - ولم أشارك من قريب

أو بعيـد فى أى عمل من أعمال العنف، فذلـك لا يوائم طبيعة خاضعة للمثاليـة الفكرية. كنـا نخطر بميعاد ومكان قيـام المظاهرة، وغالبًا ما كانـت تبـدأ عند ميـدان الجامع الأزهـر، فيخطب الخطبـاء، وتلقى الأزجال، وتغنى الأناشـيد. وفى هذه المظاهرات سمعت أزجال الصديق المرحـوم عبد الله شـداد يغنيها بصوت جميل، وبألحـان من تأليفه، قوية التعبير. كما انتشـر فى وسـط الطلبة النشيد البهيج الطرير الذى ألفه ولحنه ابن دفعتنا بمدرسـة الطب، الصديق الدكتور محمود أحمد الحفنى، ويهزج قائلا: «يا عم حمزة، إحنا التلامذة» الخ.

وفـى واحدة أو أكثر من مظاهراتنا – ولا أفهم لماذا اخترنا لها اليوم لفظ المسـيرات – أحاط بنا الجند البريطانى، ونصبوا مدافعهم الرشاشة أمام جبهة المظاهرة، وقامت طائرة للاستطلاع فوقنا «من تلك الطائرات التى كانت تشـبه أقفاص الفراخ» وسـقط قتلى، رأيت من بينهم غلامًا لم يبلغ السـنوات العشـر. وقيل – ولم أره – بأن طالبًا أزهريًا خطف مدفعًا رشاشًا وجرى به حتى هوى قتيلاً فى «النومانزلاند» بين صفوف الجنود، وطليعة المظاهرة الواقفة فى مواجهة باب الجامع الأزهر. ولقد صورت يومًا شبيهًا بتلك الأيام فى قصة لى بعنوان «صاحبى ماكفرسون» (فى كتاب: سندباد إلى الغرب).

وأذكـر مظاهـرة أخرى كنا نشـيع فيها جنازة الشـهداء، وداهمنا العسـكر الإنجليـز عند ميدان العتبـة الخضراء، فتفرقنا شـذرمذر،

واتجهت إلى شـارع محمد علي وهناك رأيت ضابطًا مشـهورًا بشواربه السوداء الكثيفة، كان من حراس رئيس الوزراء، وقد استل سيفه وصاح فينا شـحذًا للهمم: قفوا ! ! الثبات، الثبات !.. ولات من ينادى، فقد واصلنا العـدو والاحتماء في الحوارى، ونحن نسـمع طلقات الرصاص تختلـط بأصوات طرقعـة أحذيتنا فوق الأرصفة، وانطلقت شـرارة من حديد كعب واحد يجرى أمامنا.. فحسبناها رصاصة.

ولا أنسـى زميلى فى الدراسة، وابن «حتتنا» المرحوم الدكتور أحمد زكى مطر. وكان يمثل نوعًا من البسالة الهادئة. إذ إنه بالرغم من قدمه الصناعية التى تمنعه من العدو السـريع، لم ينكص أبدًا عن الاشـتراك فى المظاهرات. فإذا مـا جرينا للاحتماء ممن يتعقبنا، كانت تتنازعنى عوامل النجاة بنفسى، وعامل الزمالة والأخوة فأخفف من عدوى حتى لا أفترق عن صديقى الشجاع.

وسـأحكى فى الفصل التالـى قصة حصار الإنجليـز للأزهر، لمنعنا مـن الوصول إليه للاشـتراك فى ليالى الوطنيـة العظيمة. وكيف وقف زملاؤنـا الأزهريون على مقربة من الديدبانات الإنجليز يسـرون إلينا بكلمـة «زاوية العميان» وكيف كان يقودنا بعضهم خلال دروب الأربع القديمة إلى باب خلفى من أبواب الأزهر يعرف بهذا الاسـم، لا يدرى الإنجليز بأمره. وقد تنبه ديدبان إنجليزى نجيب إلى الكلمة وحسبها تعنى «ممنوع المرور» فكان يرددها لمن يفد عليه منا، بلكنته هكذا «آوت

إليميان» فيتلقانا الدليل الأزهـرى إلى الممرات الخفية فى ظلام الليل على ضوء مسرجة من صفيح.

فـى ليلة من تلك الليالى التاريخية – حـين كان الخطباء من علما المسلمين ورجال الأكليروس القبطى يتداولون المنصـة إنهاضًا للهمم وإيقادًا للشـعلة المقدسـة – كانـت التعليمات قد ألقيـت إلينا بحماية الجبهة الموحدة ضد عوامل التفرقة، يوم نشـرت الصحف نداء للزعما يطالبـون الأمة بالهدوء والكف عن كل مظاهـر العنف. لم نكن نعرف إن كانت تلك خطة سياسـية مرسـومة أو إنهم صدعوا بأمر عسـكرى مهمتنـا كانت أن نقـاوم التهجم على هذا النداء من قبيل رسـل حزب يعارض الوفد. وقد احتدم النزاع بين خطبائنا من طلبة الطب والحقوق وبـين طالب بالحقوق أوفد من قبـل ذلك الحزب، وكان من أقدر خطبا الثورة بيانًا وفصاحة وحماسًـا. وانفض الاجتماع مبكرًا، مما دعا بعض المتحمسـين للسـهرة الليلية إلى محاولة الاعتداء على جماعتنا، التى اعتبرت مسـئولة عن «فشـل الاجتمـاع» فصرخ فيهـم أجهرنا صوتًا. وأقوانـا عضلا، وأثبتنا جنانًا – الدكتور محمد حلمى الجيار – ونادى بوحدة الزعامة، وبسـقوط دعاة الفرقة بالانشقاق. وكان لموقفه الشجاع الفضل فى نجاتنا من الضرب.. بالمراكيب.

هـذا ما كان مـن أمر الطلبة الذيـن التحقوا بالمـدارس العليا «قطط عمياء». وقد قضوا العام كل حسـب ما يحسـن وما يستطيع القيام دفاعًا

عن مقدرات الوطن، وطلبًا للاستقلال التام، ولم يتحقق وشيكًا، أو الموت الزؤام، وقد ظفر بشرف الاستشهاد من بيننا غير قليل.

كان أثر الثورة علينا أشبه بالإعصار، وقد جرفت الموجة العارمة زملاء لنا استقروا فى السجون حتى أخرجهم سعد زغلول فى أول وزارة رأسها - وكانت الأخيرة - ورحم الله من قضى منهم على أعواد المشانق، أو برصاص الغادرين. وعاد من عاد منا إلى مدارسهم، شبابًا أنضجته الثورة، وضمرته المحنة، وفتحت عيونه على آفاق واسعة من المعرفة.

لأن ثورة ١٩، فى صميمها غير الواضح، لا فى أقوال زعمائها، ولا فى هتافات أبنائها، كانت تعنى فى ضمير الزمن شيئًا أبعد بكثير من التحرك السياسى، ألا وهو «التحرر الذهنى». وإذا كنا نلتمس المعونة عند دول أوربا ضد إنجلترا، فقد حرصنا على أن نفهم ونعى ما يجرى فى أوربا. وكان هذا أول العهد بنا فى قراءة الصحف الأجنبية - وجريدتى «الطان» و «الديبا» بخاصة - لنعرف ماذا نتحدث به عن ثورتنا، ونتابع أخبار مؤتمر فرساى. وفيها عرفنا لأول مرة ماذا يحدث فى روسيا، وسمعنا بكرينسكى والمنشفيك ولينين وتروتسكى والبلشفيك. ومع أن الصورة التى كانت توصف بها الثورة الروسية فى صحافة الغرب كانت صورة مفزعة فى سعارها، فقد أحسسنا بأن ثمة بركانًا هائلا تفجر فى إمبراطورية القياصرة، حاولت الدول

المنتصرة إطفاءه بكل الوسائل، فإذا جنود الروس البيض بقيادة دنيكين وكولتشاك وفرانجل، تذوب نوبان الجليد عند مقدم الربيع.

ولم ننقطع منذ ذلك التاريخ البعيد عن متابعة أخبار السياسة العالمية، فالوعى إذا تيقظ لا سبيل إلى إخفاء الحقائق عنه. ولكننا عرفنا مبكرًا مع الأسف، أن بلوغ الحقائق فى المعترك السياسى بعيد المنال، وأن الصحافة ذات مقدرة عجيبة على تلوين الوقائع حسب ميولها السياسية وتوجيه الأحزاب لها. ومنذ اليوم الذى اعترف فيه الرئيس ويلسن الأستاذ الجامعى صاحب المبادئ المشهورة، منذ أن اعترف رئيس الولايات المتحدة بالحماية على مصر، أصبنا بخيبة أمل خرجنا منها بشىء كان له أكبر الأثر فى حياتنا المستقبلة..

هو أن نتحصن دائمًا بقوة من أفعل قوى العقل، وهى الشك، وألاّ نعتمد فى أمورنا إلا على أنفسنا.

زاوية العميان

- آوت

اليميان، آوت اليميان يا لا !

بهذا نطق الصاجن البريطانـــى، وهو واقف خلف الجازباند الحربى المؤلف من متراليوزات كلها على «سنجقة عشرة» ضمن كوردون حصار الجامع الأزهر لمنع المواطنين من بلوغه حيث يعقدون اجتماعاتهم الليلية التى اشتهرت بها ثورة سنة ١٩.

ويظهـــر أن الصاجن كان ذكيًا مفتح الأذن، فقد لاحظ أن القادمين منا بعد العشـــاء لاجتماع الأزهر، يرتدون بســـرعة عن مواصلة السير إلى «باب المزينين» قبل أن يوقفهم هو، وسمع بعض «الوطنيين» يدلون إلينا بكلمة السر.

– من زاوية العميان، زاوية العميان!

فطـــن الصاجن إلـــى أن هؤلاء «الوولاد الجيبـــو» الواقفين بالقرب من نقطة الحصار يتكلفون عنه بمنع مرور مواطنيهم، ورنت فى أذنه كلمة «فى زاوية ...» كأنها «آوت»، وقارب بين إصطلاح «آوت اف باوندز» و «آوت اليميان»، كأن اللغة العربية فرع من الأنجلوسكسونية.

ولا أنســـى أول جنـــدى بريطانى فى الحرب العظمـــى الأولى، وجه إلىّ الكلام يســـألنى عن الكلمة الفرنســـية المكتوبة فوق لوحات محطات

التـــرام، وهى «أريه»، فيقول لـــى هل معنى «آريت» بلغتكم هو «ســـتوب» بلغتنـــا؟ وصحح الغلام خطأ فارس ســـان جورج، وأخبره بأن «ســـتوب» فى لغتنـــا «محطة». فقال له: «آه، أنتم تكتبونهـــا آريت وتنطقونها ميهاتا! » وهو يظـــن أننا نكتب لغتنا بحروف لاتينية، ويحســـب أننا كالإنجليز إذا كتبوا كلمة «مطاط» مثلا، نطقوا بها «لستك»، وربما «كاوتش»، والله أعلم.

عرفنا – نحن طلبة المدارس العليا، القادمين لحضور اجتماع الأزهر الليلى – أن زملاءنا الأزهريـــين مكلفون بتوصيلنا إلى داخل جامعتهم العظيمة برغم الحصار، ونســـير قدمًا لنبتعـــد عن «جازباند» الصاجن، فيتلقانـــا الزميـــل الأزهرى ويدلف بنا من شـــارع إلى حـــارة إلى زقاق إلـــى عطفة، وندخل ربعًا، وننتقل من ســـطحه إلى خرابة، ومنها إلى حـــوش، فحارة وكل هذا فى ظلام دامـــس تضيئه هنا وهناك لمبة صفيح بفتيـــل غاز ثم ننتهى إلى بوابة مقفلة، نـــدق عليها دقًا خفيفًا، فتفتح لنا.. وإذا الأزهر حافل، مثل كل ليلة، بعشـــرة آلاف، بعشرين ألفًا قل بأكثر أو بأقـــل، لا أدرى.. كأن الصاجن ورجاله لا يحاصرون الأزهر.. وإنما يحاصرون هايد بارك فى لوندرة..

يدلـــف طلبة المـــدارس العليـــا: الطب والحقـــوق، والمهندســـخانة والمعلمين العليا والزراعة والتجـــارة، إلى داخل الأزهر، ليتفرقوا بين صفوف الجالسين حول منصة الخطابة يستمعون إلى خطباء الحفل تلك الليلة: أصحاب الفضيلة والنيافة المرحومين الشيخ الزنكلونى، والشيخ

أبـو العيون، والقمص سـرجيوس. وكان تقليد الحفـل يقضى بأن يبدأ زميل أزهرى بتقديم ضيوف الشرف الوافدين، وهم يجلسون فوق شرفة المبلغ العالية، يراهم الجمع الحاشـد. وبينهم قساوسـة من السـريان الكاثوليك، والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس بطيالسـهم السـوداء ذات الحواشـى الزرقاء وطرحهم السـوداء تنفرج عن أكاليل أسطوانية مختصرة فى وسطها.

وقلبى عند الزميل الأزهرى، وقد كتبت له أسـماء الآباء الروحيين فـى ورقـة، يطالعهـا على الضـوء الضعيـف، والبصر كليـل، فيقرأ الإيجومانـس حكيم فرفوريوس.. الانجه مانولى فردوسـيوس. ويقرأ المونسنيور فغالى.. أبو النسور بغالى..

العين بالعين، والسن بالسن. فعندما يقوم نيافة الإيجومانس ليشكر اسـتقبال الأزهر له ولزملائـه، يحيى هو أيضًا «شـيخكم زنقلاوى.. وشـيخكم أبـو العينين.. » وتخرج أسـماء شـيوخنا الأجـلاء من بين طاقتى أنفه وقد عراها ما قد عراها! ماذا يهم ! إنها الأمة الكريمة على شـتى أجناسـها ومللها ونحلها، تجتمع فى بيت الله، مصدر الإشعاع الوطنـى، بعد أن تكون قد أدت واجبها نهـارًا فى مظاهرات لا ينقطع سـيرها، احتجاجًـا لدى المفوضيـات والوكالات، وتشـييعًا لجنازات شهداء الوطنية، وإذا الجنازات، كالمظاهرات، تفرق برصاص المترااليوز من اللوريات البريطانية.

لـم تجلس جماعتنا، كما قلت، فى مـكان واحد، بل تفرقنا كل فى قطاع وسط الآلاف المؤلفة المتربعة تنتظر الرأى من قادتها.

ذهبنـا تلك الليلة موفدين من قبل قواد الحركة الوطنية لنمنع شـرًا مسـتطيرًا ونوقف خطر تفرق الكلمة والتفاشل. فقد صدر فى صباح ذلك اليوم بالذات بـلاغ وصفته «الأهرام» بأنه «بيان من عقلاء الأمة» وعليه إمضاءاتهم يرجون البلاد أن تخلد إلى السـكينة وأن توقف المظاهرات، وتترك الأمر بين أيديهم يتدبرونه.

ولكـن رجال المعارضة أوفدوا خطباءهم ليشـككوا فى وطنية البلاغ، وهم أصحاب رأى راسخ فى معارضة مبدأ المفاوضة قبل الجلاء.

ولم يكن الطلبة الموفدون من رئاسـة الوفد المصرى يعرفون شـيئًا عما يدور وراء الستار، ويبدو أن قد بدأت مفاوضات فى ذلك الحين للإفراج عن سعد باشا – وكان منفيًا فى مالطة – والسماح له بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى.

قام خطيـب المعارضين، وكان من طلبة الحقـوق، يندد ببلاغ عقلاء الأمـة، ويطلـب ألاّ تغمـض عـين، ولا تقـف يـد، ولا يخفت صوت حنجرة، قبـل أن يعلن الإنجليز عزمهم علـى الرحيل عن البلاد. وأن يستمر الإضراب، والمشاغبات والاضطرابات حتى يسلم الإنجليز بمبدأ الجلاء العاجل الناجز.

وكان الشـاب – رحمـه اللـه – منْ أبلـغ خطباء الثـورة، يتدفق بيانًا وسـحرًا، فى لغـة عربية نارية، جعلت الحاضرين يسـتمطرون

اللعنات علـى الإنجليز، وعلى «خرقاء الأمة» فتدوى أصواتهم فى مثل هزيم الإعصار.

ويقـوم طالب آخـر من طلبة الحقـوق - ومن جماعتنـا - وبلاغته من النـوع الهادئ الرصين، ليدافع فى لباقـة بارعة عن «البلاغ للأمة» ويحاول أن يدخل فى روع الجماهير أن الوطنية الحقة هى فى الاستماع إلـى صوت العقل أولا، ومن ثم إلـى بيان «عقلاء الأمة» وفى خلال ذلك يتكلم بخير عن الحـزب المعارض، ويثنى على زعمائه، وما ضحوا فى سـبيل الوطن منذ أوائل القرن، وكأنه يرمى من وراء ذلك إلى تشـكيك السامعين فى أن زميله الخطيب الأول يتكلم باسم ذلك الحزب.

وإذا لم يكن قد نجح تمامًا فى تهدئة النفوس، فلا أقل من إشاعة القلق فى الجماهير، ودفعها إلى ما فى إمكانها من تفكير رصين.. إن وجد!

وقام طالب آخر من جماعتنا - وكان طالب طب - يخطب فى المعنى نفسـه، ولكنه يلجأ إلـى العنف، كالخطيب المعـارض، دون أن تكون له بلاغته، ويستنزل السـخط على الإنجليز، وأعوان الإنجليز، فيظن الجمهـور أنه سـيهاجم بيان عقـلاء الأمة، وإذا به يـرد على خطيب المعارضة، دون أن يشير إلى حزبه بخير أو بشر. ويحاول أن يثبت فى عاطفة جياشـة، وأسلوب حماسى، أن الثورات مهما حَمِىَ أوَارها، فإن من الخطر الداهم أن ينفلـت عيارها، وأن نجاح الثورات رهين بوحدة القيادة، والانصياع التام لها.

وهنا يحدث أن يقاطع زميلنا من ناحية الخطيب المعارض، فنقوم - كل فى مكانه من الجمع - لنغطى على صوته. وتترى «تتابع» المقاطعات من هنا وهناك، ويشتد الهرج والمرج، فيتولى شيوخ الأزهر - وكلمتهم مسموعة - تهدئة الخواطر ويختم المرحوم الزنكلونى بخطاب رائع الديباجة، يحث فيه على وحدة الأمة، ويحذر من التفاشل، ويؤازر الوفد المصرى ويدعو له بالتوفيق والنصر. ويحرص على أن يفهم الجميع بأن خطابه هو نهاية اجتماع الليلة.

ويفض الاجتماع على غير هوى الجماهير، موطدة العزم كل ليلة على السهر إلى ما بعد منتصف الليل تستمع إلى الخطب الرنانة، فكيف يطلب إليها التفرق، والساعة لم تبلغ الحادية عشرة !.

وقد أراد بعض المتهوسين أن يفتكوا بخطيب مدرسة الطب، المسئول فى عرفهم عن فشل الاجتماع.. فحميناه بصياحنا وتهويشنا عليهم.. وحماه زميل لنا عرف بصوت كالرعد، وشدة بأس، وقوة عضل.. بأن رفع ذراعه القوية فوق الرءوس وأنذر من يلمس خطيبنا بأنه مقتول لا محالة بضربة واحدة على أم رأسه لا ثانية لها.

ولا أذكر تمامًا من أى الأبواب خرجنا. كل ما أقطع أننا وقد دلفنا إلى الأزهر من زاوية العميان، خرجنا من باب آخر.

وعندما مررنا بالصاجن «المستشرق».. حرصنا على أن نناديه فى الهزيع الأوسط من الليل:

- آوت اليميان يا جونى !

طبيب العيون، وعيون السمكة

فى ورقة طائرة بين مذكراتى، قرأت هذه الكلمات مؤرخة يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩١٩: «من يوم أن عاد الموظفون (إلى أعمالهم، بعد الإضراب العام الكبير) لم نسمع خبرًا سارًا. ومن شروط الصلح المقدمة لألمانيا أن تعترف بالحماية البريطانية على مصر. بيد أن الوفد يعمل بهمة واجتهاد حسب ما هو ظاهر».

«مدارسنا أقفلت لأننا لم نرجع إليها بأمر اللنبى، والحالة هادئة فى كل القطر ولكن يخرج بعض الناس بعد الساعة العاشرة «مساء» ليتظاهروا فى المدينة وقد سقط عدد من الضحايا».

وتحت تاريخ يوم الاثنين ٢ يونيه من العام نفسه، أطالع: «تركت السياسة واجتمعت بأصدقاء قدماء، اتفقت مشاربى ومشاربهم فى الأدب والموسيقى. الليلة ذهبنا للاستماع إلى قصة الظاهر بيبرس بحى الصاغة يتلوها رجل مليح السمرة، يلبس جلبابًا أبيض. إلقاؤه طبيعى جذاب يغير لسانه عندما يلقى كلامًا يجىء فى القصة على لسان الإفرنج، فيتكلم بلكنة الجرسونات اليونانيين».

ترجمة كل ذلك أننا منذ يوم ٩ مارس ١٩١٩ فى إضراب واشتغال بالسياسة وواضح أن حياتنا ابتعدت عن الدراسة تمامًا، وأننا مهددون بأخطر ما يتهدد الشباب: الفراغ والجدة.

وكان عام السياسة هو أيضًا عام القراءة الأدبية المستفيضة، ودراسة الموسيقى، كما كان حقبة مغامرات عاطفية عنيفة كادت تدمر حياتنا المدرسية، التى لم تنتظم تمامًا إلا فى سنة ١٩٢١ حين عادت سيرتها الأولى من التوازن بين التحصيل العلمى الجاد، والاطلاع العام فى الفنون والآداب.

ولكن أزمة النمو العقلى والشعورى تركت آثارها فى نفوسنا كلومًا وندبات، أشبه مما يبقى فوق وجه الشباب الألمانى باديًا، من أثر ضربات السيوف فى مبارزاتهم المشهورة.

وإذا كنا قد تأخرنا عن الصفوف الأولى فى دراستنا، فقد كسبنا خبرة وتجربة ومعارف أكبر مما يحصله الشبان عادة فى مثل سننا. ولعل سر حياتى القلقة ثاوٍ فى فترة الجهاد الوطنى، والفراغ الذى سمح لى بمتابعة نزواتى الفنية والعاطفية.

ومع أننى أتممت دراستى الطبية فى ميعادها (بعد ضياع سنتين)، وحصلت على ميدالية فى طب العيون، هى التى قادت خطواتى إلى قسم الرمد، فإن صلتى بالفن والأدب لم تنقطع. وذلك بالرغم من أن التحاقى بذلك القسم فرض علىّ مواصلة الدراسة. فلم يكن فى زماننا أقسام تخصص وماجستير ودكتوراه، وقد حرص قسم الرمد بمصلحة الصحة العمومية على تقويم معارفنا علمًا وعملا، وفرض علينا أداء امتحان عسير يتألف من قسمين، فى طب العيون، وإدارة المستشفيات.

بـدأت حياتـى العملية - على خـلاف حياتى المدرسـية بالمرحلة العاليـة - فى تـوازن عقلى ووجدانى دام سـنتين بالتمـام والكمال، أداء لواجباتى فى المستشـفى وإعدادًا لامتحانات تخصصى، مع مواصلة دراسة الموسيقى، والقراءة الأدبية والتاريخية.

العـام الأول قضيتـه بالقاهـرة، مـا بين مستشـفى الرمـد بالجيزة، ومستشفى روض الفرج (وكان خيامًا منصوبة) . والعام الثانى قضيته بمدينة طنطا «سـنة ١٩٢٥» وكان من أسعد أيام حياتى، بسبب التوازن النفسانى، ولما خبرته فى أهل طنطا، بل أهل الإقليم كله من كرم طباع وطيب مودة.

ولقـد أوفدت فـى مأموريات قصيرة بمستشـفيات المحلة الكبرى، والسـنطة، ثم بنهـا، وكان لها أثر عميق جدا فى نفس القاهرى الذى لم يخرج عن مدينته إلى الريف سـوى مرة واحدة فى طفولته - ولبضعة أيام - ومرة واحدة فى شـبابه - يومًا أو بعض يوم - بصحبة محمود تيمور لزيارة أرض لهم بقويسنا.

عرفت قومى، وغرست حبى للوطن فى إبليز الوادى الخصيب، فأينع وأزهر وما فتىء يظللنى حتى يحين الحين فآوى تحت ثراه الأقدس.

وهنا موضع قصة أحب سـردها على أصدقائى، فى صورة ابن المدينة المعترف بضآلته، الراضى بمهانته، عقابًا له على جهالته.

لقد رأيت نبات القطن نموذجًا فى قاعات الدرس، ورقًا ولوزًا وهدبًا أبيـض ولكنى لم أك رأيت القطـن زهرًا.. حتى ذلك اليـوم البعيد فى

طنطـا، عندما ركبت عربـة بحصان واحد، إلى جانـب عمدة من عمد البـلاد المجاورة، دعانا لقضاء يوم بدواره.. سـألته في حياء عما يكون ذلك الزهر الأصفر الجميل يزين الحقول على جانبى السكة الزراعية.. أجابنى بلهجة هادئة، لا تخلو من رثاء: دا قطن يا دكتور!

وما عتـم العمدة حتى تحول إلى طبيعة المصـرى الصميم، من كلف بالسـخرية. فما برح يسـألنى عن كل ما نمر به من أعمـدة التليفون، وقضبان السـكة الضيقـة ومزلقاناتهـا: دا ايه يا دكتور؟ دى أسـلاك التليفون ياعمدة. دا مزلقـان يا حضرة العمدة، أجيب وكأننى الراهب يضرب نفسه بالسياط فى صومعته.

ليتنى عدلت يوم الحسـوم ذاك عن رغبتى الملحة فى ركوب الخيل، فما إن جلسـنا نستروح نسمات العصارى فى شرفة سلاملك الدار، أمام سـاحة البلدة، حتى جىء إلـىّ بجواد عربى أصيـل، لا داعى لتلمس المعذرة فى نقد طريقة سرجه ولجامه فلن يغير هذا من عنوان ذلك اليوم فى لوح القدر يوم الذلة والهوان.

مـا إن دار الفرس دورته حتـى أدرك وزن ابن المدينة. ولعل العمدة قد أسـر إلى جواده بأننى «الهايف» الذى لم يتعرف على زهرة القطن! فطرحنـى الجـواد الكريم عـن ظهره، أو كما علمنا أسـاتذة الإنشـاء العربى: نبذنى نبذ النواة. ونهضت من سـقطتى لأتلقى تهنئة العمدة على سلامتى، ولأسمع بأذنى قوله: معالهش يا دكتور ولا كل من ركب الحصان خيال.

كانت حياتى مستقرة هانئة، ومستقبلى مورقًا مزدهرًا.. كتلك الأزهار الذهبية البالغة التى لم أعرف اسمها.

ولكنه القلق المستحوذ على كيانى، المتربص بى، ولكنه قلق الركود والرتابة وآثار الرومانتيكية الحادة التى لم أك شفيت منها تمامًا، هى التى قررت مصيرى عندما سولت لى نفسى استحالة ممارستى للمهنة النبيلة حتى آخر عمرى وأن المقلة وحدها لا يمكن أن تحتوى رغباتى ونزعاتى.

وكان قرارًا خطيرًا ذلك الذى اتخذته بينى وبين نفسى، ونفذته ضد نصيحة أصدقائى وزملائى ورؤسائى.. وهو هجر عيون البشر إلى دراسة شىء هائل عجيب، مجهول لى تمامًا فى غير ما رأيت من سطحه، وما قرأت عنه من أساطير. ألا وهو البحر.

ولا تفسير عندى لهذا القرار أكثر من الرغبة العارمة فى العلم والمعرفة، والتشوق الشديد إلى ورود ينابيع الحضارة الأوربية التى نشأت كلفًا بها، معجبًا بالقليل الذى رأيته وعرفته وسمعته من آثارها. ولقد أدرك رؤسائى تلك الرغبة فأكدوا لى أن سيجىء دورى فى البعثة إلى مستشفى مورفيلدز بلوندرة، ولكنهم لم يدركوا طبيعتى القلقة، ورغبتى فى التغيير.

ثم ما هى سنة أو سنتان أقضيهما فى مستشفى متخصص بلوندة، إذا ما قارنت ذلك بسنوات أقضيها ما بين باريس وتولوز وعلى شطآن

بحر الشمال، والبلطيق والأطلنطى، والأبيض، ناهيك بما تخيَّلتُه من ركوب بحار الدنيا، واتصالى بأهل البحر الذين قرأت عنهم فى رحلات السندباد وفى عجائب الهند، بره وبحره وجزائره، لبزرك بن شهريار الناخوداه!

ولا أنسى، وقد تقرر أن أسافر بالبعثة العلمية إلى فرنسا لدراسة الأحياء المائية، وكتمت الخبر إلا عن صديقى ورئيسى المرحوم الدكتور محمد بكرى، ونحن نعبر ترعة الجعفرية فوق القنطرة الموصلة إلى مستشفى الرمد الأميرى، إذ تقدم شاب من طلبة المعهد الدينى، وحيانى بأدب بالغ، وقدم قصيدة مديح من تأليفه مهداة إلىّ بمناسبة عملية أجريتها له، أو كشف نظارة، لا أدرى..

سرت والمرحوم محمد بكرى فى طريقنا إلى المستشفى نتبادل الابتسام وأتساءل ماذا يقول هذا الطالب الأزهرى لو عرف بأنى تاركك، وتارك تخصصنا، من أجل عيون البحر الزرقاء؟

أجابنى بكرى ابن النكتة الساخرة: ما أظنه إلا أن يقول: خسئت يا خئون أتطوى كشحك للعيون التى فى طرفها حور.. من أجل عين السمكة؟

البعثات. وما أدراك ما البعثات

قبل أن أستأذن القارئ فى التوقف عند ختام سنة ١٩٢٥، أحب أن أتحدث عن معنى السفر بالبعثة التعليمية، لما لهذا الموضوع من خطر لم ينقص، بل زاد بحكم التطور الكبير الذى تمر به بلادنا، وبازدياد الحاجة إلى إيفاد الشباب لإتمام تعليمه وتثقيفه خارج الديار.

لقد مرت البعثات منذ النصف الأول من القرن الماضى بأدوار من النظم، بدأت بنظام البيت الواحد «للأفندية» يشرف عليهم مدير للبعثة من أهل البلد الموفدين إليه، وتؤمهم شخصية دينية كان من حظ هذه البلاد أن يتولاها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى.

وفى العشرينات الأولى من القرن الحالى وبعد افتتاح التمثيل الخارجى لمصر، انتقلت وظيفة الإمام إلى المفوضيات وعين لإدارة البعثات مصريون، وإن ظل مدير البعثة التعليمية فى لوندرة بريطانيًا حتى آخر الثلاثينات. وتحددت الرقابة على أعضاء البعثات بحدود الإشراف المالى والإدارى والعلمى فحسب. ولا أعرف عن النظام المتبع حالا سوى أنه يشبه فى كثير ما كان متبعًا أيام بعثتى. والجديد فيه- بقدر علمى - هو حَظْر الزواج بالأجنبيات.

ونجـاح الطالب فى بعثته أو عدم نجاحه، وحسـن سـيره أو سـوء سـلوكه «فيما ندر» أمورها مرهونة بظروف الطالب نفسـه، لا أحسب المشـرفين عليه يسـتطيعون فيها أكثر من التوجيـه والنصح، فاتخاذ الإجراءات الإدارية المرسومة.

ويمكـن القول بصفة عامة أن نظام البعثات نجح تمامًا، وكفل للبلاد مجموعـة ممتازة من رجـال العلم والأدب والاقتصـاد والقانون والطب والهندسة والتكنولوجيا إلخ. وبفضلهم استطاعت مصر أن تبلغ ما بلغته اليوم من كفاية القائمين على شئونها التكنوقراطية، ومن أداء الخدمات الجلى للبلاد العربية، وبعض البلاد الإفريقية.

وقد سألت الأستاذ أرنولد توينبى فى الندوة التى نظمها السيد صلاح دسـوقى محافظ القاهرة السـابق بين المؤرخ الكبير وبـين عدد من قادة الفكر فى الجمهورية (راجع مجلة «الكاتب» عدد أبريل ١٩٦٥) «قلت فى محاضرتك الأخيرة إن التطورات فى البلدان العربية متباينة، وإنك تقـدر مدى تقدم مصر على البلدان العربية بمائة وخمسـين عامًا، هلا شـرحت لنا على أى أساس تقيم هذا التقدم؟ هل هو أساس تكنولوجى، أم فكرى، أم علمى؟»

أجاب البروفسور توينبى: «إن مصر من أحد الوجوه متقدمة بأربعة آلاف عام، هذا إذا وضعت التاريخ المصرى فى الاعتبار. وأعتقد أن الماضى المتراكـم من التاريخ المصـرى القديم والإغريقى، والرومانى والمسـيحى

والإسـلامى – أعتقد أن هذا الماضى عظيم جدا، ولقد دخل كله فى حياة شعب مصر. ولكنى حينما قلت ذلك فإنما كنت فى الواقع أفكر من زاوية إدخال الأساليب العصرية، والثقافة الفرنسية، ومن زاوية أن المصريين هـم أول طلبة من العالـم العربى يذهبون إلى أوربـا. وأعتقد إذا لم أكن مخطئًا أن محمد على هو الذى أرسل الطلبة إلى فرنسا حوالى ١٨٢٠».

وسـر نجاح البعثـات العلمية هو – أساسًـا – الدقـة المتناهية فى الاختيـار، وتطبيـق قواعد علميـة تطبيقًا عادلا، لا محسـوبية فيه. ولقد اشـتركت بجامعة الإسـكندرية فى لجانها لاختيـار بعثاتها، بعد نهاية الحرب العالمية مباشـرة. وتصويرى لأعمالنا فى تلك اللجان هو أننا كنا «نزن المرشـحين بميزان الذهب» سـواء فى اللجان، أو فى مجلس الجامعة.

ولـن أجد لنظام البعثات عندنا فى الماضى والحاضر «باسـتثناء فترة سـوداء إبان الاحتلال البريطانى» إلا كلمات الثناء أزجيها لكل من قام ويقوم على شـئون البعثات. فالإحساس بالتبعة التاريخية حيال البلاد واضح فى الماضى والحاضر على السواء.

ولكن ما لم يستطعه أولئك وهؤلاء، ولعلهم لم يحاولوا حتى التفكير فيه هو موضوعى اليوم:

إننى لا أعـرف فى العلوم والآداب والفنون فى العصر الحديث كتلة شرقية أو غربية، وفيما يتصل بأثر البعثات على الحياة المصرية لا أريد

أن أعترف بثقافة لاتينية أو سكسونية أو سلافية إلا فى بعض صورها الظاهرية. وضيق العقل وحده هو الذى يقيم موازنة بين تلك الثقافات، ففى دنيا العلم والمعرفة والفن والأدب لا أعرف إلا عالمًا واحدًا، هو عالم «الحضارة الحية». وهذا هو المعنى الذى أعربت عنه فى سؤال ثان وجهته إلى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فى الندوة المشار إليها.

فوزى: فيما يتعلق بموضوع البلدان المتخلفة، أو النامية، أو كاملة النمو، يبدو لى أن هذا يتحدد فى الغالب على أساس اقتصادى أو صناعى، أو تكنولوجى. فهل لى أن أسأل البروفسور توينبى عن أساس حضارى لتصنيف البلدان: ماذ يمكن أن يكون هذا الأساس فى رأيك؟ متى تصف بلدًا بأنه متقدم، أو آخذ فى النمو، من وجهة النظر الفكرية أو الحضارية؟

توينبى: «.. فلنأخذ بلدًا آخر فقيرًا جدًا بمعدل الفرد، إيسلندة: مواردها ضئيلة جدًا، فهى بلاد جرداء، والناس يعيشون هناك على صيد البحر، وبناء بعض السفن، وهم يبيعون سمكهم المجفف لإفريقيا الغربية. ومع هذا فهم متحضرون جدا، ومعظم صيادى إيسلندة يستطيعون أن يتناقشوا مناقشات طريفة حول بعض المسائل الأدبية. حينما كنت هناك سمعت قصة سفير النرويج الذى كانت له اهتمامات بنوع من الأدب الأيسلندى يسمى «الزارجا» وصدرت هناك طبعة جديدة من هذا الكتاب، وتردد السفير فى شرائه بسبب ارتفاع ثمنه، وآثر

أن يعــود في وقت آخر. ودخل في تلك الآونة صياد يســأل عن الكتاب، ويخــرج نقوده على الفور ليقتنيه. وشــعر الســفير بالخجل، وعاد بعد أســبوع مصممًا على شراء نســخة، وإذا الطبعة قد نفدت! هذا بلد فقير اقتصاديًا، ولكنه يتسنم القمة من الناحية الحضارية. وفنلندة مثل آخر: كل إنسان هناك يقرأ ويقتني الكتب، ولا ينفق نقوده على التفاهات».

وهنا سألته عن بلد قريب جدا منا، مقرب إلى قلوبنا، اليونان، هل هو متخلف، أو نام، أو متقدم؟

توينبي: «أضعه في نفس الموضع الذى وضعت فيه فنلندة وإيسلندة: إن اليونان قوم ممتازون».

وعلقــت على إجابته بقولي: «إننى حينمــا أريد أن أحكم على بلد، أســأل عن عاصمتها، إن كانت فيها دار للأوبرا، وجامعة. وهل لديهم قاعات للموسيقى وأوركسترا ســمفونى، وكيف تعمل مجلاتهم، وماذا يحقــق مثقفوهم في العالم، هــل لديهم روائيون ممتــازون، وما حال المسرح عندهم؟ وما إلى ذلك، أعنى لو أن الأمم المتحدة أقامت أساسًا من الحضارة الروحية، وليس مجرد أساس من الآلة، كما تفعل اليوم، لكان هــذا أفضل: لأن الدول النامية حينذاك ســتفكر فــى الوصول إلى تفوق حضارى، أكثر مما تفكر في إقامة الآلات والصناعات».

لقــد ذهبت إلى أوربــا لأدرس علمًا من العلــوم، وتطبيق ذلك العلم في تنمية الثروة القومية، وقضيت شــطرًا هامًا من عمرى أؤدى واجبى

فـى هذه الناحية، ولكننى كنت مدركًا تمـام الإدراك بأن وراء مهمتى العلمية والتطبيقية شـيئًا يفوقها: وهو دراسـة الحضارة حتى أغوص إلى أعمق أعماقها. وفى كتاب «سـندباد إلى الغرب» فصول تصور بعض وجوه تلك الحضارة.

وأثنـاء بعثتى كنت أود لو تدخلـت إدارة البعثات فى توجيهنا إلى الناحية الحضارية، كأن تجمعنا فى ندوات عن معنى الحضارة نتبادل فيها الخبرات والانفعالات التى تثيرها حياتنا وسط المجتمع الأوربى.

ويمكن أن أقسـم المجموعة الممتازة من المبعوثين الذين عرفتهم أثناء إقامتـى فى أوربا إلى فريقين: فريق نبغ فى تخصصه وتعجل الحصول على دبلوماته وعاد «على الطائر الميمون» إلى بلاده. ويغلب على ظنى أن التكنوقراطيين الكبار فـى مجتمعنا اليوم ينضوون فى هذا الفريق. وما عليهم فيما فعلوا من حرج، بل الخير فيما آتوا.

والفريق الآخر أضاف إلـى تخصصه تفقهًا بمعانى الحضارة، فطالع الأدب، وارتاد المتاحف والمسـارح الجادة وقاعات الموسـيقى الرفيعة، والمحاضـرات العامة وربما أطالت تلك الاهتمامات، لسـبب أو لآخر، سـنوات دراسـته. ولكن ما من شـك عندى فى أن هذا الفريق هو الذى يجب أن تعتمد عليه البلاد فى تطورها الحضارى.

ولقد لاحظ الممتازون من زملائى فى البعثة أن أساتذتهم الكبار، ذوى الأسـماء الرنانة فى تخصصهم، واسعو الاطلاع على مقومات الحضارة،

بل يسلك بعضهم فى الحركات الفنية والفكرية. وعندما اشتركت فى جمعية موسيقية للهواة بمدينة تولوز «جمعية شارل بورد» لاحظت أن من أعضائها بعض شخصيات المدينة، من رجال العلم أو الإدارة أو الطب أو الهندسة. وكان يجلس فى أوركسترا الجمعية، على قيد خطوات منى، ويعزف على الفيولا، أستاذى المساعد فى علم النبات. وما زلت أطالع اسمه بين علماء الإيكولوجيا النباتية الكبار.

وعندما توجهت إلى ميونيخ سنة ١٩٢٩ للقيام بدراسة تخصص فى جامعتها، لم يتردد واحد من أساتذتها - أظنه كان مشتركًا فى الحركة النازية - فى أن ينظر إلىّ من عل «كواحد من أبناء تلك الشعوب المتخلفة» ولم يشفع لى عنده أننى تتلمذت على علماء كبار فى السوربون وجامعة تولوز، إذ كان من الواضح أن ذلك النازى غير حفى بالفرنسيين، فلم يخف على استهتاره بعلمائهم.

ثم حدث أن التقيت به فى حفل موسيقى خاص بالرباعيات الوترية، وإذا بالرجل يعدل موقفه منى، فيناقشنى صباح اليوم التالى فيما سمعنا من موسيقى، ويعجب إذ يعرف بأنى أمارس ذلك الفن، ومشترك فى أوركسترا السوربون. وقد أقبل بعد ذلك علىّ، وأعاننى بكل ما وسع على أداء المهمة العلمية التى أوفدت إليه بها، ثم دعانى إلى منزله، وقدمنى لأسرته.

لقد ذكرت هذه الواقعة لأن فيها انتقالا فجائيًا من عدم الاكتراث إلى الاحتفاء. والحقيقة أن سر نجاحى فى المجتمعات الأوربية لم يكن

مرجعه تفوقى فى علم من العلوم، بل لأن من اتصلت بهم كانوا يحسون منـــى وعيًا لحضارتهم، فلا يجدون خيرًا مـــن أن يقابلوا ذلك بالتحدث عـــن مجد بـــلادى القديم وثقتهم بأنهـــا تتبوأ عاجـــلا مكانتها اللائقة بتاريخها.

كم أود أن تعنى وزارة التعليم العالى بتوجيه أعضاء بعثاتها العلمية إلى إدراك معنى الحضارة التى يعيشون بين أهلها من الكتلة الشرقية أو الغربية. ولا أعنى بالطبع الحضارة فى مظاهرها المادية، أو فى المعاملات الاجتماعية من طعام أو ملبس أو مرقص، وإنما أقصد الحضارة بمعناها الروحى والثقافى العميق.

وأعجـــب ما لفت نظرى أخيرًا أن يشـــجع المبعوثون إلى بلاد إفريقيا علـــى تأليـــف الكتب عن البلاد التى يعيشـــون فيها زمانًـــا، فائدة هذا واضحـــة، فهى تؤدى إلـــى تعريفنا بإخواننا البعيديـــن، أولاد قارتنا. إنما مصدر عجبى أن لم نفكر يومًا فى الأربعين سنة الماضية بأن نشجع أعضاء البعثات إلى أوربا على التقدم بدراسات عن أصول الحضارة التى نعموا بخيراتها العقلية والوجدانية.

وهـــل صنع شـــيخنا رفاعة رافـــع الطهطاوى غير هـــذا عندما كتب رسالته «تخليص الابريز، فى تلخيص باريز»؟

وإذا شـــئت أن تعرف رأيى فى رفاعة الطهطاوى، فإليك ما جاء عنه فى كتاب «سندباد مصرى»:

«وعاد رفاعة إلى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة، متحفزًا لإصلاح المجتمع المصرى. عاد ليدرس وينشئ المدارس. ويصنع من تلاميذه روادًا للجيل الصاعد.. مضى يكتب، ويخطب وينشر المجلدات والصحف، يبسط العلوم، ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد، يحاول هدم الآراء الفاسدة ويبذر بذور التقدم. يبصر أمته بروعة ماضيها، وخصب حاضرها، ورجاء مستقبلها. لا يكل فى ذلك نشاطه، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان.. لولاه ولولا الفريق الذى رباه، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل».

إنما الدنيا مسرح كبير

«كل قوة تستنفد، والقدرة على قيادة التاريخ ليست من الخصائص الأبدية. فأوربا التى ورثت القيادة عن آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة قد لا تحتفظ بها دائمًا».

المؤرخ إرنست لافيس فى سنة ١٨٩٠

توقفت فى سرد ذكريات الماضى عند التحول الأول فى مسار الحياة، حينما تركت الطب إلى العلوم، ثم اتضح لى بعد تأمل طويل أن الأسباب التى تلمستها للتوقف عن سرد ذكرياتى كانت أعمق مما تصورت، فقد وقفت عند اختيارى عضواً بالبعثة لدراسة الأحياء المائية وعلوم البحار. ويبدو أن فترة الغربة والتحصيل فى أوربا - وقد طالت إلى خمس سنوات - فرضت على - قبل أن أقدم على استعادة ذكرياتها - أن أعنى بتحليل عام للحياة الغربية، ومحاولة فهم أوربا لا كما كانت تتمثل لى نتيجة لتربيتى ودراستى فى مصر بل فى حقيقتها التاريخية. ولعل هذا يفسر اتجاهى فى الأشهر الماضية نحو مطالعات فى تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين.

فلم أكن أعرف - ولا يمكن لإنسان فى وقتها أن يدرك - أن فترة إقامتى بأوربا من ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ لها حساب فى التطور التاريخى الحديث. فهى فترة الرخاء المضطرب، و «السنين المجنونة» (تسمية

الفرنسيين لها) بعد الحرب العالمية الأولى، وقبل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى بدأت يوم «الجمعة السوداء» فى وول ستريت، واجتاحت العالم كله فى أوائل الثلاثينات.

ومع أنى تتبعت أحداث العالم حولى، فقد كنت غير مدرب الحاسة التاريخية بحيث أعى خلال الحوادث الجارية علاقتها بمجرى التاريخ العام، لاسيما وأن قراءاتى التاريخية اقتصرت على حقبات حضارية معينة، أهمها حضارتى المصرية والعربية وحضارة اليونان فى عصرها الذهبى، ثم تاريخ عصر النهضة فتاريخ الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت حتى أفول نجمه فى واترلو (١٨١٥)، وحتى وفاته حبيسًا فى سانت هيلانة.

ومعنى ذلك أننى لم أكن تعمقت فى دراسة العصر الأحدث والأقرب إلينا. ولعل هذا يفسر انصرافى منذ بعض الوقت إلى مطالعات تاريخية عن القرن الماضى والحاضر.

أدركت مثلا هذه الحقيقة البسيطة جدا، وهى أن وقوع مصر فريسة للإمبريالية كان أمره محتومًا لا مناص منه، حتى بفرض أن لم يتول إمارة البلاد تلك الشخصيات المسخ المهلهلة التى تحمل أسماء عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق، وحتى لو لم تحدث هوجة عرابى. فقد كنا، وكل الشعوب غير الأوربية. نمثل أمام أوربا قصة الحمل والذئب، مأكولين مأكولين.

وعرفت مثلا أن حركاتنا القومية لمقاومة الاستعمار لم تكن لتؤدى إلى زحزحة الغاصب، عندما كان الغاصب غولا «يفطر بنصف قطر، ويتغدى بقطرين ويتعشى بنصف قارة» ولكنها كانت الشعلة المتقدة فى أغوار النفوس الأبية، لا تطفئها البصقة التى قيل بأن السير ريجنالد ونجت قل أدبه وأشار إليها قبل ثورة ١٩١٩.

وما أصدق كلمة لغاندى انطباقًا على حالنا فى تلك الأيام الخوالى، بل ما أقربها إلى ما كنا نقوله فى غمار حماسنا الوطنى:

«إن البريطانيين يريدوننا أن نضع جهادنا على مستوى المدفع الرشاش، فهم يملكون السلاح ونحن شعب أعزل. وليس ثمة ما يؤكد انتصارنا عليهم إلا أن نبقى على مستوانا نحن، وأن نحارب بأسلحة لنا لا يملكها غاصبونا».

ولقد شرحت فى مكان آخر (سندباد مصرى) وبالإفاضة اللازمة، صراع القومية المصرية ضد الغاصب الرومانى والبيزنطى، وأن ذلك الصراع إن دل على شىء، فإنما يدل على أن مصر كانت من أقدم الشعوب وعيًا وممارسة للمقاومة السلبية.

كان غاندى البرهمى العظيم عميق الاطلاع على كتب الحكمة الهندوكية (كالأوبانيشاد والباجافاد - جيتا). ولعل فقرة من «أوبانيشاد الشهندوجيا» تفسر لنا المعنى الروحى الذى كان غاندى يعمل بوحيه:

«الإنسان مخلوق إرادى، حياته فى الآخرة تنبع من إرادته فى الدنيا. فلتكن إذن عقيدته وإرادته هى أن الإنسان الذكى، ذا الكيان الروحى، والتكوين النورانى، الصادق الفكر، الأثيرى الطبع، من يفوح العنبر الزكى من نفسه، وينبع الذوق الجميل، والأعمال الصالحة، الإنسان الذى تنضوى جوانحه على كل ذاك، دون شقشقة لسان، أو عجب وخيلاء، هو "أنا فى قلبه"، إنه الروح السامى - أى البراهمان».

فلنتمعن قليلا فيما يحدثنا به تاريخ أوربا فى خواتيم مائة العام التى انتهت عند سنة ١٩١٤:

كانت أوربا على حد قول اللورد كينس تعيش حقبة فوق العادة من التقدم الاقتصادى للإنسان، كانت ذروة العالم الرأسمالى الليبرالى. وقد رسم العلامة الاقتصادى الكبير صورة صادقة لأوربا فى رخاء أممها وثراء أفرادها، وبلهنية العيش بها، والإحساس العام بالطمأنينة.

وكانت الدنيا كلها تقدم لأوربا السلع التى لا تخرجها أرضها، والمنتجات الاستوائية النادرة التى لم تعرفها أوربا إلا مؤخرًا، والتى تمثل غاية الترف. بينما تتلقى بلاد الدنيا من «المصنع الأوربى» سلعًا كانت أوربا وحدها هى التى تستطيع إنتاجها بكميات وفيرة. وكان العالم مفتح الأبواب والمسالك، أزيلت منه الحواجز إلا القليل، والناس والسلع ورءوس الأموال والأفكار تنتقل حرة فى كل مكان.

ولاحظ أن تلك الدنيا، أو ذلك «الايلدورادو» الذى يصفه كينس لم يكن العالم فى شموله، ولا حتى أوربا بأكملها، بل كان بعض أوربا «البعض

المسيطر»، أى مجموعة البلاد الأوربية القائمة فى غربى القارة ووسطها، وهى التى تضم «بؤرات الحضارة الغربية». وحتى الدول الجديدة، كالولايات المتحدة واليابان، التى تشارك فى استغلال موارد العالم، كانت بنت أوربا، تقلدها وتستألف وسائلها ومثلها وطرائق معيشتها.

كانت سيطرة الرجل الأبيض - أو بعض الشعوب البيضاء - تبدو كأن الشعوب المغلوبة على أمرها تستمرئ هيمنتها صاغرة، وكانت وحدة شعوب الأرض تبدو كأنها قد تحققت، ونظمها السياسية تظهر كالطود الشامخ متين البنيان.

ولم تمض أربعون سنة على عام ١٩١٤ حتى تغير الموقف كليًا، وكأنه ديكور مسرحى يبدله ويغيره الماكينست المتجلى فى صورة حربين عالميتين، وأزمة اقتصادية لم يعرف لها التاريخ مثيلا فى شمولها العالم بأسره.

حرب ١٤ كانت حربًا أهلية داخل أوربا، دامت أربع سنوات. هزت ثورة روسيا سنة ١٩١٧ العالم الرأسمالى الكبير هزة لم يعد بعدها إلى سابق عهده، بل لم يعد فى المستطاع إرجاع الحياة سيرتها الأولى واطمئنانها وأمنها ورخاؤها.

قبل أن يكمل القدر (أو حتمية التاريخ) ضرباته على أم رأس أوربا فى صورة الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩، فالحرب العالمية الثانية، كان تدهور أوربا واضحًا لكل من يدقق البصر، أو يكشف بالبصيرة.

فإن النظام الرأسمالي كله، ذلك البناء المشمخر، أخذ يتصدع منذ اليوم البعيد في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩ المعروف في دوائر المال بنيويورك باسم «الجمعة السوداء».

فما عرفت أوربا، ولا العالم، منذ ذلك الوقت هدوءًا ولا راحة. فقد تلاشت الثقة بالمستقبل والطمأنينة. إلى الحاضر، وترنح النظام اللبرالي تحت ضربات النظم الشمولية في روسيا السوفييتية وإيطاليا الفاشستية، وألمانيا النازية، وكلها تصفع وتركل وتدوس على مبادئ الحرية، روح الحضارة الأوربية منذ نهاية القرن الثامن عشر.

ودارت رحى الحرب العالمية الثانية - ولما تزل آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى - «فشلفطت» الفاشستية والنازية وأذنابها، بل محتها من وجه الأرض، لكنها آبت «رجعت» بنتائج غير منظورة ولا متصورة. فإن كانت الحرب قد بدأت بين أمبرياليين طماعين نهابين يتناحرون على ملكية العالم، فقد ختمت على أم رأسهم جميعًا وتخلصت من براثنهم أكثر الشعوب المغلوبة في إفريقيا وآسيا.

وحتى شعوب أميريكا اللاتينية لم تعد تقبل سيطرة الدولار بروح الاستسلام القديم.

ثورة عالمية لم يتغير بها وجه السياسة والاقتصاد وحدهما، بل وجه الفكر والعلم والفن أيضًا. فالفيزياء التقليدية انزوت في متحف العاديات، والقوبرنطيقا (الإليكترونيات وشبكة الأعصاب في الحيوان

إلخ) وما إليها من اكتشافات وإنجازات قوضت أساس الفكر الفلسفي.

والفنانون والكتاب صرفوا النظر عن تساؤل العبسي القديم «هل غادر الشعراء من متردم»، لأنهم استغنوا عن ذلك القديم يقلدونه أو يبنون فوقه - وإن حرصوا عليه - وراحوا ينهجون ويقتحمون مسالك جديدة عبَدوها للقصة والتمثيلية والقصيدة والصورة والمصنف الموسيقى والتمثال. فلم تعد الوسائل القديمة تفلح في التعبير عن العالم الحديث القلق، ولا هي بمستطيعة أن تمثل علاقة الإنسان بنفسه، وبغيره، وبالعالم حوله.

أكتب هذا وأمامي، تحت لوحة المكتب الشفافة، إعلان ملون صغير عثرت عليه داخل كتاب قديم، تدعو فيه شركة سكة حديد باريس - ليون - البحر الأبيض المتوسط (ب. ل. م) إلى كرنفال نيس وإلى تيرو الحمام بمونت كارلو، وإلى زيارة نيس وموناكو ومنطون... تذكرة ذهابًا وإيابًا مداها عشرون يومًا، إبان شتاء ١٩١٤، ويمكن مدها لفترتين كل منهما عشرة أيام (لاحظ مدى تلك الإجازة الشتوية التي لا يقدر عليها اليوم سوى قلة من حفريات العصر الرأسمالي!).

والصورة على رأس الإعلان من أصدق ما يمثل حقبة الرخاء والهناء: أربع سيدات جميلات، بقبعاتهن واسعة الأطراف، طويلة الريش، وفساتينهن الحشمة لا تكشف إلا عن أقدامهن الصغيرة في أحذية كحوافر الغزلان، وفتحات مثلثة بين الكتفين والنحر. أربع سيدات

فى ألوان هادئة يهرعن فوق بساط سندسى إلى لقاء النسيم الحالم يلصق أثوابهن بأجسامهن ولكن فى منتهى الحشمة والوقار، وخلفهن نخيل تتمايل أعطافه، وتهتز أغصانه تحت لمسة الشمأل «ريح الشمال» فوق الريفييرا.

ما أكثر ما أقارن بين هذه الصورة الساحرة فى سذاجتها وحشمتها، وبين الإعلانات الحديثة، أو المقالات المصورة التى تنشرها مجلة «لايف» فى سلسلاتها السياحية... ذلك كان عالم الاسترواح والهدوء والأمن، جنات عدن فوق الأرض، فى مقابل جمال زائف حتى فى عريه وفحشه وتواليت وأصباغ تحاول كلها - دون جدوى - أن تخفى القلق والفزع، والأعصاب المُنْهَكة بالسهر والانحلال.

أولئك السيدات المحتشمات كن يعملن لدنياهن كأنهن يعشن أبدًا.. أما الغوانى العاريات، فتمثلهن على غلاف «لايف» مانكان رشيقة، تهوى من يخت إلى مياه البحر الأبيض الزرقاء... وكأنها فى طريقها إلى جهنم الحمراء. لأنها تعيش لدنياها وكأنها... بل لأنها قد تموت غدًا.

ألم تذكرنا الصحافة الأوربية فى هذه الأيام بمرور عشرين عامًا على قنبلة هيروشيما التى قضت على مائة ألف من البشر فى ومضة عين؟

طالب بالبعثة التعليمية

اكتشفت عَرَضاً وأنا أستعد للسفر إلى أوربا أن بعثتى كان مقررًا لها الدراسة بجامعة كامبردج، ثم تحولت إلى جامعة تولوز، حيث يوجد معهد متخصص لدراسة الهيدروبيولوجيا (وتعنى تقنيا: بيولوجيا الماء العذب) وتربية الأسماك. واستطعت بعد وصولى إلى مكتب البعثات فى باريس، بطريق الإقناع والبينة أن أعدل برنامج بعثتى، على أساس أن أبدأ بدراسة التاريخ الطبيعى (الحيوان والنبات والجيولوجيا) والفسيولوجيا العامة والبيولوجيا، لإمكان التوسع فيما بعد لدراسة شئون الحياة المائية فى البحار والبحيرات والأنهار.

واقتنعت البعثة بأن أسجل اسمى فى كلية العلوم بجامعة باريس، وأن أحضر الدراسات الحرة بالمعهد الإقيانوغرافى القائم على مقربة من السوربون.

وإذا كنت هنا أخدع نفسى، فمن غير اللائق أن أكذب على القارئ. لأن قرارى البقاء فى باريس – وإن دافعت عنه أمام البعثة بالأسباب المشار إليها – انتهيت إليه بعد أول زيارة لقاعات الصور بمتحف اللوفر.

وإذا كانت حياتي كطبيب بمصر قد بدأت مزدوجة، يتنازعها الشغف بالمعرفة وعشق الفن، فقد أوقعت زيارتي لقصر اللوفر «الفاس في الراس»، ولذلك رتبت أمرى على مواجهة حقيقة مفزعة، وهى أن حياتي ستكون أشبه بحياة ابن يتنازعه والداه بعد انفصالهما انفصالا نهائيًا. والوالدان في هذه الصورة الكلامية هما: العلم والفن، أو العلم والمعرفة والأدب والفنون، إذا أردنا أن نكون أكثر تفصيلا.

وزيارة اللوفر هى أيضًا بحاجة إلى شيء من التفصيل. فقد وصلت إلى باريس في شهر نوفمبر ١٩٢٥، وعتام الشتاء مخيم على مدينة النور أو «المدينة - النور» كما يسميها أهلها. والنهار يقصر، فلا تنعم بضوئه الخافت إلا بعد التاسعة صباحًا، وقبل الخامسة مساء. ولا أذكر أنى رأيت الشمس الطالعة بعد ذلك حتى شهر مارس.

دلفت إلى متحف اللوفر بعد ظهر يوم من أيامى الأولى في باريس، ولبثت فيه حتى كسر الحراس قُلّة خلف الزوار المتشعلقين بشباك الفن «شايلله يا سيدى لوفر !».

لم أك أفهم شيئاً في الفن التشكيلى - ولا أحسبنى أدرك من أسراره اليوم سوى القليل - كل معرفتى به كانت قراءات ومشاهدة نسخ صغيرة من بعض الصور المشهورة، وارتياد معارض الربيع الأولى بالقاهرة، واطلاعًا لا بأس به على العصر الرومانتيكى في الأدب والموسيقى والتصوير. ولكن مجرد رؤيتى لأصول بعض ما سمعت عنه،

أو رأيتـه منسـوخاً، وروعة الألوان - برغم اليـوم العبوس - ثم بذخ مجموعـات اللوفر من الصـور، وبخاصة في البهـو الكبير، والصالون المربع الشـهير، جعلني أحس بأن حياتـي ضائعة لو ركبت القطار في بحر ذلك الأسـبوع إلـى تولوز للالتحاق بجامعتهـا، على مدى اثنتى عشـرة سـاعة من باريس «تولوز إيه وبتاع إيه» إنـي باق في باريس، أو مطالب بإعادتي إلى مصر.

لم أنته في قرارة نفسي إلى ذلك القرار لأهدد به - فلم أك غراً يسعى إلى ضياع مستقبله حمقاً - بل لأن قراري يستند إلى خطة واضحة: إما أن أبقـى في باريس لأعيش الحضارة التي نشـأت على الإعجاب بها، والإيمـان بمقدراتها، وإمّا أن أعود إلى بـلادي لأواصل احتراف مهنة الطب، وهي طريق ممهد إلى النعمة والثراء، أتمكن معه من العودة إلى أوربا كل عام، أقضي إجازتي فيما أختار من عواصم الحضارة.

قضيت ليلتي أستجمع شتات أفكاري وأدبر أمري مع مدير البعثات، وكيف أتقدم إليه بمعللات بقائي في باريس عامًا أو عامين، قبل الانتقال إلى تولوز.

والعجيـب أن المدير - وكان المرحوم الدكتور حسـن فؤاد الديواني - رضي بما عرضته عليه دون جدال. لم أكن أعرف في تلك اللحظة أن طريقه في الحياة كان شـبيهًا بطريقي. فما إن أتم دراسته الطبية حتى انتقل إلى العلوم وبرز فيها وعاد إلى مصر أسـتاذًا للبيولوجيا بمدرسة الطب المصرية، ثم عين مديرًا للبعثة التعليمية بفرنسا.

الصعوبة الوحيدة كانت فى إقناع الدكتور الديوانى بأنى جاد فيما عرضته عليه من توسيع قاعدة بعثتى، وتصحيح البرنامج الهزيل الذى وضعه لها من لم يكن يعرف من أمر الأحياء المائية سوى أنها تربية السمك الأحمر فى الحدائق العامة، وفساقى رجال الدولة والأعيان!

لم يوفدنى الديوانى للالتحاق بالسوربون فحسب، بل أوصى بى واحدًا من زملائه القدامى، أخذ بيدى حين طرقت البحث العلمى بإشرافه فيما بعد - وكان هو أيضاً طبيباً تحول إلى البحث العلمى فى التشريح الدقيق للخلية (السيتولوجيا). وعدت بعد سنوات من بعثتى والدكتور بار فى طريقه إلى المجد. حتى قضى غريقًا فى إعصار الأطلنطى الشمالى مع بعثة القومندان شاركو، هو وصديقى الآخر كلوفيس جاكيير، ضمن الأربعين نفساً الذين غرقوا أمام إيسلندة فى مأساة السفينة العلمية «بوركوابا» (سنة ١٩٣٥).

ولا بأس من أن أذكر هنا مصادفات عجيبة وهى أن أكثر من عملت معهم فى البحوث العلمية، بجامعة باريس، والمعهد الأقيانوغرافى، وجامعة تولوز، ومتحف التاريخ الطبيعى القومى، وبعد ذلك بسنوات فى بعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى، كانوا أطباء تحولوا إلى العلوم. فلم يكن ما صنعت عجيبة العجائب كما ظن بعض الزملاء الأعزاء.

كانت السوربون إذن أول ما عرفت من صور الحياة الجامعية. ولذلك حرصت على دراسة نظامها دراسة وافية، مع التركيز على كليات

العلوم والآداب والطب. فقد عدت إلى مقاعد الدرس أكبر سناً وتجربة من زميلاتى وزملائى الفرنسيين. وعرفت منذ وضعت قدمى على أعتاب الجامعة معنى الفرصة النادرة التى تُتيح لى وعى كل شىء حولى، وأن سنواتى فى أوربا وفى شرخ شبابى هى فترة تخزين النمل فى آخر الصيف من أجل الشتاء. فيها أستجمع ذخيرة العمر حتى أكون أقدر على خدمة بلادى. وأرجو ألاّ تؤخذ هذه الجملة على أنها كلام «إنشاء» وروى أشعار، وأن يعذر لى إغراقى فى المثالية، فإذا لم يكن المرء مثالياً فى شبابه، فمتى يكون؟

لاحظت ظاهرة عجيبة فى محاضرات علم الحيوان، وهى أنه من غير المعقول أن يرتفع مستوى التعليم هكذا فجأة بعد البكالوريا. فهاأنذا وقد درست فى مصر مواد إعدادى الطب، وفسيولوجيا الإنسان وتشريحه، أتساءل حيال مستوى المحاضرات: كيف يتسنى لزملائى الفرنسيين وهم لا يحملون غير شهاداتهم الثانوية أن يتابعوا تلك الدراسة المفصلة. وذهبت إلى أكبر الأساتذة سناً أسأله عن «الكتاب المقرر» فترفق الشيخ الطيب بى، ولم يسخر منى بل أجابنى بهدوء: لو أن الأستاذ حاضر من كتاب بعينه لما اعتبر هذا تعليماً جامعياً. وأملى على قائمة صغيرة لكتب علم الحيوان بالفرنسية والإنجليزية. وجدير بالملاحظة أنه تعفف عن أن يشير إلى كتاب من كتبه. وسألنى إن كنت أعرف اللغة الألمانية، فأجبته بالنفى، ودأبت بعد ذلك على دراسة

تلك اللغة الأساسية لرجل العلم، تلقيت دروساً خاصة بها طوال إقامتى بفرنسا، وعلى حساب البعثة. ونصحنى بأن أتابع المحاضرات وأدون مذكرات بها مع الاستعانة بتلك الكتب، قبل المحاضرة وبعدها، حتى أتمكن من فهم الموضوع الذى يعالجه الأستاذ بتوسع كبير.

وكانت البعثة تصرف لنا عشرة جنيهات فى العام لشراء الكتب، وهو مبلغ صغير حتى فى زمانه، ولكنه كان مغرياً ومشجعاً على اقتناء الكتب، بصرف النظر عن كفاية المبلغ أو عدم كفايته.

وقد حاولت أن أنتفع بمكتبة الجامعة فوجدت لها نظاماً يحتاج إلى صبر أيوب، بسبب ازدحامها بالطالبين. وعندما انتظمت كطالب باحث فيما بعد، عرفت أن جل الاعتماد هناك على مكتبات الأقسام وهى حافلة وافية، لا تلجئ المرء إلى المكتبة العامة إلا للضرورة القصوى.

وساعدنى تدريبى فى مدرسة الطب المصرية (باللغة الإنجليزية) على تدوين المحاضرات بالفرنسية، ولم يكن ذلك سهلا فى أول الأمر، ولكن المران والاتصال بالزملاء والزميلات، وعناية البعثة بنا لنتمكن من اللغة، انتهت بى سريعاً إلى الالتئام بالبيئة الفرنسية، واكتساب تقاليدها وطرائق تفكيرها. و «استذكارها».

وأحب أن ألاحظ هنا أن الأستاذ لم يكن يحاضر فى أكثر من نصف العام الجامعى، محاضرتين أسبوعياً، يركز فيهما على موضوع أو موضوعين من أبواب المادة، ويترك للأساتذة المساعدين مهمة تدريس

بقيــة المادة على مستوى الكتب الجامعة (تكسـت بوكس). ويختص بالتجـارب والتدريبات العملية - تحت إشـراف الأسـاتذة - مدرس يعـرف برئيس الأشـغال العملية، يسـاعده المعيدون وهـم خريجون ممتازون مهمتهم الأولى هى البحث العلمى، إعداداً لدبلومات الدراسة العليا والدكتوراه، ويكلفون بالمعاونة فى الأشغال العملية، مقابل منحة سنوية تسمح لهم بالكفاية المعقولة من العيش.

وملاحظتـى علـى الحيـاة الجامعية فـى كلية العلوم هـى الجدية الصارمـة، وقيام علاقـات الزمالة بـين الجدين. أما مـن يتخلف عن المحاضرات والأشغال العملية فما أسرع ما يهمله الزملاء، دون إظهار شـىء مما يضمرونه له مـن رثاء، أو عدم احتفـاء. وكان هذا هو القيد الوحيد الذى يفرض على الطلبة الانتظام فى عملهم، وهو كما ترى قيد أدبى اجتماعى محض.

والامتحانات تجـرى تحريرياً وعملياً وشـفوياً، ولا يدخل الطالب الاختبار العملى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى، ولا الشفوى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى والعملى. وللشـفوى أهمية كبرى فى الامتحانات الفرنسـية بعامة، ويجرى علناً، أمام الزمـلاء. ولم ألاحظ فى زملائى ظاهـرة الخوف والرعب من الامتحان، ولا محاولة الغش. وكان الطالب يدرك أنه فى هذه الحالة يغش نفسه، وهو لم يدخل الجامعة إلا ليحقق الكفاية اللازمة لمستقبله.

والطالب يقابل العميد فى ساعات محددة أسبوعياً، ويدخل عليه حسب دوره فى الطلب ليعرض أمره أو شكايته، جالساً أمام العميد تصاحبه أهم شخصية إدارية بالكلية. ولم ألاحظ أن العمادة تشغل الأستاذ عن بحوثه فى تفاهات وديوانيات مرهقة. لأن الجامعة حرصت على أن تسند كل تلك الأعمال إلى مختص إدارى يقوم بها «تحت إشراف العميد» ومع ذلك القليل الذى تقتطعه العمادة من وقت أولئك العلماء الأعلام. فإنهم يعتبرونها ضريبة ثقيلة، فالعمادة هناك تكليف لا تشريف. وتصبح هى والأستاذية شرفاً بعد ختام مدة العمادة، أو إحالة الأستاذ على التقاعد فى الخامسة والستين، (تمتد إلى السبعين لأعضاء أكاديمية العلوم) وهذه قاعدة أساسية فى فرنسا: أن يستبقى العمداء والأساتذة ألقابهما شرفياً مدى الحياة.

ولا أنسى منظر العلامة الرياضى الكبير جان بانليفيه – وكان قد تولى قبل وصولى رئاسة الوزارة، ثم تركها – منحدراً على سلم السوربون، حاملا حافظة أوراقه، ومتجهاً إلى محطة الأتوبوس بشارع المدارس، ولا المسيو شيرون، من وزراء المالية السابقين، وقد شاهدته نازلا من الأتوبوس أمام باب الوكسمبور (مقر مجلس الشيوخ) ليؤدى واجب عضويته بذلك المجلس.

لا شـك أن الكثير من هذا تغير الآن، وقد غدا لكل خمسة أو ستة من الفرنسـيين سـيارة، وزاد عدد الطلبة زيادة بلغت حد المشاكل، وتغيرت أخلاق الشباب بعد الحرب والاحتلال النازى.

ولكن ما لا أحسـبه تغير أبداً هو حرص الجامعة على اسـتقلالها، فوزير المعارف هو رئيسها الأعلى (صورياً ودستورياً). والاحترام الذى يحظى به لا أسـاتذة الجامعة وحدهم، بل رجال التعليم عموماً فى بلد روحها وحياتها فى المعرفة والثقافة والارتفاع بالذوق الفنى، والاحتفاظ بالمثل العليا فى العلم والتعليم.

أهلاً وسهلاً بالأحبّا

عندما ركبت السفينة «الجنرال متزنجر» من الإسكندرية فى نوفمبر سنة ١٩٢٥، وصحوت ذات ليلة قبل الفجر لأشاهد أضواء مدينتى ريجيو ومسينا على جانبى المضيق بين إيطاليا وصقلية، ورأيت بركان سترومبولى وجزائر اسكيا وألبا وكورسيكا، وعندما وصلت إلى ميناء مرسيليا، أيقنت أننى دخلت دنيا الغرب، أوربا الموموقة المرموقة. هأنذا أضع قدمى على أرض فرنسا، وريثة حضارات الشرق والغرب.

كنا جمعاً غفيرًا من الشبان على ظهر الباخرة، أغلبنا سيواصل رحلته عبر فرنسا، ليبلغ مقر بعثته فى الجزر البريطانية. ولم يكن فى مجموعتنا القاصدة إلى باريس من سبقت له معرفة مرسيليا، ولا فينا من له أدنى خبرة بإجراءات الخروج من الميناء، فاضطررنا إلى الانصياع لواحد من الصياع، ظل عالقًا بنا حتى خرجنا من المنطقة الجمركية إلى محطة سان شارل، فى الطرف الآخر من طريق «الكانبيير»، لنحجز أمكنتنا فى قطار الليل إلى باريس. وحل ميعاد الغداء، والمدينة التى اخترقنا شوارعها عامرة بالمطاعم. فماذا كانت حاجاتنا إلى الدليل الصايع ليدور بنا فى دروب وضيعة حتى نبلغ مطعماً لا ينذر منظره

بخير، وقف ببابه رجل يلبس قميصاً بدون ياقة من الصنف الذى يزرر أعلاه بزر من نحاس ويبرز من قفاه زرار نحاسى آخر، هما مربط الياقة، إن وجدت وكأن لها اعتبار عند صاحبها.

ولا أذكر ماذا كان يلبس فى قدميه، لم يكن حذاء على كل حال، ربما كان شبشباً، ولكن السنوات الطوال التى مضت على التجربة المرسيلية الأولى تصوره لى منتعلا.. قبقاباً! هذا الزى الهيئة والبزة، الشبيه بالخواجات الغلابة أيام زمان بشارع كنوت بك أو درب الجنينة، استقبلنا هاشاً باشاً، وصفق بيديه على الطريقة البلدية، واحتفى بنا فى عربية لكناء:

- أهلا وسهلا بالأحبا!

ودخلنا المطعم البلدى لنجلس إلى موائد من رخام أو زنك أو خشب، وقدمت لنا قائمة الطعام مكتوبة بفرنسية ماسحة، وعربية «كنفابيش» الفراخ، تزاحم هذه وتلك أصناف من البقع. وأكلنا طبق «مبرومة» - أى بامية - وأرز، وربما جاء الحلو كنافة أو عيش السرايا، والله أعلم!

أى إنه بعد خمس ليال قضيناها عبر البحر الأبيض المتوسط، وبعد معيشة أشبه بما سيجرى فى فرنسا، وقد بدأنا «نتمرن» عليها، وبعد مشاهدة المدن الإيطالية والكورسيكية، ولو على البعد، ثم مرسيليا.. كأننا يا بدر!

وخرج «الأحبا» للتجول فى مرسيليا، وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الميناء، فى أحيائه القديمة، مباءة للجرائم، وملتقى أشرار الأرض

طرًا، وأن من الخطر على السائح أن يتوه فى الأزقة، وبخاصة إذا اقتاده إليها دليل يحترف شتى الحرف، أبسطها القوادة!

اقترحت على «الأحبا» أن نزور متحف المدينة فركبنا إلى قصر «لونشان»، ولا أذكر مما رأيت فى ذلك المتحف شيئاً، فلم أعد إليه بعد ذلك أبداً، برغم المرات الكثيرة التى مررت فيها بمرسيليا. أذكر فسيفساء جميلة أمامه فى وسطها مجموعة نحت لعلها تمثل بوسيدون إله البحر يسوق خيوله البحرية ذات الأعراف المتماوجة، أذكرها لأن «للأحبا» صورة على حافة ذلك الأثر لا أجدها تحت يدى توا.

ثم صعدنا آخر النهار فوق ربوة أقيمت عليها كنيسة «سيدتنا الحارسة». وكان يوم أحد، فسمعنا ترتيل ألحان باصطحاب الأرغن، وشاهدنا غروب الشمس فى منظر لا ينسى.

وفى الليل ركبنا القطار، ووصلنا باريس صباح اليوم التالى فى عيد «الكترينات» حين تخرج فتيات المتاجر فى حلل العيد ويذهبن إلى الكنائس يبتهلن إلى القديسة كاترين أن تنعم عليهن بالعريس الفالح خلال العام المقبل. وفى المساء تزدحم الشوارع بهن، وبمواكب ملكتهن. ويخطف الشبان القبلات خطفاً، وكأنهم يخشون أن تتحول القبلة إلى شبكة فخطبة فزيجة.

كل هذا كلام فارغ جرى به القلم وأنا أحاول استعادة ذكرى سفرى الأول إلى بلاد الغرب، فترنح القلم بهذه التفاهات. ولكن ماذا يحول

بينـــى وبين إحياء تلـــك الذكرى؟ الواقـــع أن البحر أصبـــح فيما بعد، ولسنين طويلة، موضوع دراستى: أمواهه وأمواجه. وتياراته وقيعانه، ونباته وحيوانه، وأن أسفارى على سطحه، وعملى على شواطئه دامت ربع قـــرن، ركبت خلاله الســـفن الكبـــار والصغار، عابـــرات المحيط ومراكب الصيد، كواتر النزهة وسفن الأبحاث. ومع كل ذلك فإحساسى هـــو أن أعجب وأجمـــل وأعمق الرحلات أثراً.. كانـــت العبور الأول من الإسكندرية إلى مرسيليا.

وهأنذا أســـأل نفسى عن تفســـير لمجموعة أفعل التفضيل الواردة فى الفقرة الســـابقة فلا أحار جواباً. فالبحر فى تلك الرحلة الأولى لم يكن أكثر من «توصيلة»، ولم تحتو الرحلة على شىء غير عادى، فلا عاصفة هوجـــاء مما اختص به البحر الأبيض فى الشـــتاء، ولا ظواهر أو وقائع مثيرة داخل السفينة أو خارجها.

والعجيب أن روعتها لا تتجلى الآن كمجرد حنين إلى الشباب – ولو أن فيها من هذا ما لا أنكر – بل لأن ذاكرتى تؤكد لى أنها كانت رائعة فـــى وقتها، وأننى كنت مـــدركاً تمام الإدراك معنى ذلـــك الانتقال من وطنى الحبيب إلى البلد النائى الغريب.

لا محيـــص إذن عن الالتجاء إلى المذكـــرات التى كتبتها فى حينها، مهما كلفنى ذلك من «شـــيل وحط» فى كتب ومجلات وأوراق وكراريس

وسلبيات صور وخرائط رحلات... و ... فلنفحص بعض ما جاء بتلك اللمحات العاجلة:

«كل شيء جديد عليّ: إجراءات الميناء، الصعود إلى ظهر الباخرة، البحث عن الكابينة... الإعجاب بمنظر السفينة تبتعد عن الرصيف وتدخل البوغاز لتخرج إلى عرض البحر».

«قضينا نحو ساعتين أو أكثر نرى البر، تعبت من النظر إلى الأرض، وتحولت عنها إلى تأمل الأفق على مد البصر. استنشقت نسمات خُيِّل إلى أنها جديدة، وشعرت في تلك اللحظة بأنني أتخلص من سجن، وأني أتنسم الحرية».

وهذا الإحساس بنسيم الحرية لازمني طول حياتي البحرية كلما غادرت سفينتي الميناء. حتى أيام رحلة الباخرة «مباحث» في المحيط الهندي، حيث كانت هي السجن لثلاثة أو أربعة أسابيع، والأرض هي الانطلاق والحرية نحو أسبوع. ومع هذا، فما أكاد أبلغ قمرتي ليلة الإبحار وأخلع سترة المدينة لألبس ما أسميه بدلة القرصان، حتى أولي ظهري للأرض، وأستقبل البحر، والسفينة، وطناً للحرية، لا حرية الجسد، بل حرية الروح.

«إنها لحياة سعيدة على ظهر السفينة، حياة نسيان. غادرنا أرضاً لنصل إلى أرض، الماضي والمستقبل، فترة اتصال بين حياتين. هنا عيشة منتظمة متناسقة، حركة داخل حركة، حياة طليقة داخل سجن سعيد».

«وقد أفكر بتاريخ البحر الأبيض المتوسط، بسفن يونان تؤم أرض اليون، أو بسفينة أودسيوس تتيه فى بيداء الماء. أفكر بالأساطير التى قامت حول شواطئه: الهسبريدة، السيلا والكاربديس، الجزة الذهبية بأرض كولخيدة، وأطلس يحمل عمد الدنيا فى أقصى الغرب. أصاحب سفن فنيقيا من صور وصيدا إلى الموانى البعيدة، وجحافل هانيبال تعبره لتتحدى روما، وجيوش سبيون الإفريقى تنحدر من الشمال لتدمر قرطاجة «دليندا كارتاجو»، وسفن كليوبترة ومارك أنطونيوس أمام رأس أكتيوم، وجاريات جنوا وفنسيا. البحر الذى يبتلع التاريخ ولا يغيره الزمن».

«العاصفة! (لم تكن عاصفة ولا دياولو) ظهر السفينة الذى كان منذ لحظة ممرحاً وملهى. أقفر فى طرفة عين واختفت الوجوه المستبشرة وقد علتها غبرة وصفرة، وآوى كل إلى ركن أو قمرة، كأفراخ طير ضعاف. حتى المائدة لم أجد عليها إلا بعض ركاب السفينة».

«والليل حالك، ولكن البرق يخترق السحب فى خطوط متعرجة، كألسنة الأفاعى الخرافية من لهب، أو سيوف تجردها أيدى الجن فى لمح البصر».

«وهدير العباب يغطى على قصف الرعود، والمطر ينهمر بلا شفقة.. آوى إلى غرفتى فأطمئن إلى وجيب السفينة والمحركات لم تفقد رأسها. وأستلقى على السرير الصغير يتابع حركة السفينة ألعوبة الموج. فما هى إلا لحظة حتى أروح فى سابع نومة»!

«كيف كانت العاصفة وكيف انتهت؟! إن سلطاناً أقوى من العاصفة قد تملكنا، هو سلطان الجسد. ونحن قبل أن نكون ألعوبة الطبيعة، لعبة لطبيعتنا، خلايا الجسم تنشد الراحة قبل كل شيء».

«كنت أرقب كل ليلة قيام البحر قرب انتصاف الليل، أتأمل فى مقعدى خلال زجاج النافذة تلك الكتلة الهائلة من الظلام، وأنصت إلى هدير الموج، كأنه صدر إله من آلهة الاسكندناف يرتفع وينخفض تحت تأثير غضب هائل، فأقوم مترنحاً لأنزل إلى غرفتى فأشعر بالهدوء والاطمئنان».

«هذه حياتى على ظهر الجنرال متزنجر».

«صحوت الساعة الخامسة وكان الظلام شاملا، والجو فى رطوبة الفجر، والسفينة لا يسمع فيها غير صوت آلاتها، وأقدام المبكرين، وبعض أفراد الطاقم يغسلون المماشى».

«أشباح سوداء فى الفجر الرمادى، قطع من الظلام كأنها ظهرت توًا من قاع البحر. لأننا حتى غروب شمس البارحة لم نر أثرًا للأرض منذ غادرنا الإسكندرية، واليوم أرى الربا على جانبى السفينة ترصعها مصابيح تضاءل نورها على البعد، السفينة تجتاز مضيقًا بين أراضين عليها أثر الحياة، ولو أنها الحياة النائمة.. وكان نور الصبح يتبلج فيكشف عن الأرض شيئاً فشيئاً. والسماء ارتسمت على صفحتها قطع السحاب رمادية اختلطت بها بعض قطع من نور.. إلى أن تبينت شاطئ

إيطاليا وشـاطئ صقلية، والمنازل ذات الأسـقف الهرميـة متناثرة فى الأودية وفوق سـفوح التلال، والطرق منسـابة فى خطوط تظهر بسيطة التعريـج من هـذا البعد، والمصابيـح تنطفئ واحدًا إثـر الآخر، كتلك النجوم تختفى تحت لمسـة الصباح. ثمة قطار يقطع المسافة، يبدو بطئ السير جدًا من هذا البعد، صغيرًا كألعوبة الصبى».

وتلى فقرات تصف بركان سـترومبولى بالطول والعرض. «والدخان يتصاعد من فوهتين كبيرتين، ومواضع أخرى حولهما، يصعد أكثره فى عمود ضخم نحو السحاب، ليتصل به ويندمج فيه، أو هو صانع سحاب نفسه، وينسـاب بعض الدخان كالأفاعى على جوانب القمة إلى مسافة قصيرة، ليتلاشى بعدها».

وفقرات عن شواطئ إيطاليا تبدو خطوطًا سوداء يتعرج بها خط الأفق. وقد غدا من النادر أن تمضى لحظة دون أن نرى أشـباحاً بعيدة تنتشـر فى الأفق حولنا. «هذه هى جزيرة كورسيكا، ولاسم كورسيكا رنين فى نفسـى، هو ترجيع صوت الابن الذى غـادر جزيرته ليحكم على أقدار الممالـك فى أوربا. وذكرت والده المحامى البسـيط - شـارل بونابرت - وأمه ليتسيا تترمل عن ستة أو سبعة أولاد». وهنا استعراض سريع لمـا تذكرت من حياة نابليون. «كم وددت أن تسـرع السـفينة لأصل إلى باريس، وأقف تحت قبة الانفاليد، أترك نفسى للذكرى قرب ضالتها: ذلك الجثمان المجيد».

كنت شـديد الإعجاب فى شـبابى «بالكابورال الصغير». وكلما نما الفكر ونضج العقل واتسـعت التجارب، هبط سعر العبقرية العسكرية. وقد كره زماننا مثيرى الحروب، عباقرة أو مجانين.

انصرفت إلى تأمل الطبيعة الكورسـيكية كما تظهر فى البعد. «تلك الجبال والمنازل، والطرق المتعرجة والمسالك الوعرة، والبحر والسفينة، ليس فيها جديد لعينى، ولو أنها جديدة على إحساسى. فقد رأيتها فى الكتب والصور والسـينما. حالة العالم الآن لا تجعلنا ندهش من شـىء لأول وهلـة. إنما الإحسـاس برؤية الأصل والحقيقة هو إحسـاس بكر أصيل أشبه بتحقيق حلم جميل».

ثـم هذه الخطرة الغريبة نتيجـة رؤية المدن على البعد: «يا لله! ما أجمـل منظر المدن مـن البعد، حينما نحيط مدينـة كاملة بنظرنا. كأن نقف على ربوة، أو فى أعلى الأبنية الشاهقة. بهذا الفرق هو أن الصورة باقيـة أمـام أعيننا لا تتحرك فـإذا هبطنا من المرتفـع ابتلعتنا المدينة وابتلعت إحساسنا بها.».

«ولكن فى السـفينة نبتلع المدن، ونبتلـع الجبال والبراكين. فهناك كان سترومبولى ضخماً مخيفاً، مكشراً عن فوهات تنفث الدخان الأبيض والأسود. ماذا بقى من سترومبولى؟ صورة صغيرة، فنقطة، ثم لا شىء، غير الأفق وغلالة الدخان كسحابة واقفة».

«المسـافة! كلمة صغيرة ولكـن أى غول هائل، فهى قديـرة على ابتلاع الأرض كافتها. لأتصورنى - مثل بطل قصة إدجار الن بو - مصعداً إلى جرم

سماوى حتى أصل إلى حيث أرى الأرض نقطة منيرة، نجماً بين النجوم. وماذا يمنعنى من تصور وصولى إلى أبعاد لا أرى منها هذه الأرض؟».

«بعد اختفاء كورسيكا لم يبق أمامنا إلا الوصول، وحياة الحلم بدأت تعود حقيقة تبعث على التفكير. ماذا أفعل عند النزول إلى البر، وَأَنَى أذهب، وكيف أسافر؟» سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره!

وفى مرسيليا «نفس الإحساس يتكرر وسيتكرر. لقد تعودت أن أرى أوربا فى الصور والسينما وأن أتخيلها فى مطالعاتى. ووجودى بالميناء الفرنسى لا أصدقه بسرعة، ولا أشعر لأول وهلة بأننى حقيقة أمشى فى مدينة أوربية. والأغلب أننى حملت من صالة سينما ووضعت فى فضاء سحرى، أو أننى صورة صغيرة فى كارت بوستال تتحرك كأشخاص المندل. إنه لإحساس غريب، ولكنه حقيقى، لا يتلاشى بسرعة».

وأخيرا هذا الانطباع من زيارة متحف فن تشكيلى (قصر لونشان بمرسيليا): «إنها المرة الأولى أرى أصول صور وتماثيل كنت أقضى بعض يومى فى مصر باحثاً عن منقولات ضئيلة على كارت بوستال لأمثالها. هأنذا أرى الأصول لأشباه تلك الصور».

«جعلت أتمتع بهذه المشاهدة فى لهفة، لا أنظر إلى التفاصيل، بل أترك نفسى على سجيتها تنفعل وتتأثر. ماذا يهمنى أن يكون لتلك الصور قيمة فنية؟».

الخطوات الأولى بباريس

لست ممن يشجعون على الإطلاق فكرة الاستغناء عن البعثات التعليمية إلى الخارج، والاكتفاء بالبعثات الداخلية، أى بما يحصله الطالب من علم وفن وتكنولوجيا فى مصر. ولا أنكر أنها فكرة صحيحة ولكن بقدر، وفى حدود ضيقة. فلا داعى لتحميل الدولة عبء إيفاد أولئك الذين يكتفون فى الخارج بارتياد قاعات الدرس، وحيازة درجات علمية يمكن أن يحصلوا عليها فى بلادنا.

وصحيح أيضاً أن سفر الشباب إلى الخارج بشهادة ثانوية أو بأقل منها خطر يجب حماية العيدان الوطبة منه. ولا أعرف فى العصر الحديث بعثات نجحت تمامًا، مع أن أعضاءها أوفدوا غلماناً، سوى البعثات البحرية التى سافرت إلى إنجلترا فى العشرينات. ويمكن القول دون مبالغة بأن الفضل فى تقدم البحرية المصرية وتطورها السريع يعود أصلا إلى تلك البعثات البحرية الأولى. فرجل البحر -- كدارس الموسيقى - يتعين أن يبدأ مبكراً جدا فى تعليمه وتدريبه. وإذا صح الآن أن نهضتنا الحاضرة تسمح بالتدريب الباكر والتعليم البحرى الصحيح فى بلادنا، فإن ذلك لم يكن يصح فى أوائل العشرينات لضآلة

ممكناتنا البحرية حينذاك، بعد أن جردنا الغاصب المحتل من أسباب القوة فى البر والبحر.

حق إذن أن نقصر البعثات اليوم على شباب ناضج حصل فى بلاده أقصى ما تقدمه معاهدها العليا، وأن نستمسك فى اختيار إرسالياتنا بمبادئ العدالة الكاملة ودقة الموازين، مع التوكيد على أهمية إيفاد أكبر عدد من هؤلاء، لأنهم يتعلمون فى الخارج أشياء أوسع وأعمق وأقوى أثراً من مجرد العلم والتدريب والحصول على شهادات.

فالشاب الناضج يسافر إلى الخارج مدركاً أعباء مسئولياته، أقدر على قياد نفسه داخل المعهد الأجنبى، وخارجه، خلال حياة تختلف اختلافاً شديداً عن حياته فى مصر. والغالب أن يدرك مقدماً ويؤمن بواجبه نحو وطنه، لا من الناحية العلمية والعملية وحدها، بل من الناحية الاجتماعية والأخلاقية والثقافية.

ولا يفوتنى هنا توكيد المساواة فى بعثاتنا بين الفتى والفتاة فى كل مهنة اقتحمتها البنت المصرية إلى جانب الشاب، لأن وعى المصرية لوجوه الحضارة والثقافة العليا أكبر أثراً فى مستقبل البلاد من وعى الشاب، وأسباب هذا جلية لا داعى فيها لاستيحاء صورة «من تهز المهد بيمينها أو يسارها إلخ».

أصدر فى كل هذا عن تجربة طويلة المدى، وقد عرفت فى أوربا كيف أميز بين زملاء يرجى منهم الخير العظيم – وقد حققوا فعلا

هذا الرجاء – والزملاء الذين يجرى عليهم المثل السائر «حمار الصيف حمار الشتاء»، وهم من لا يتعدى اهتمامهم فى حياتهم بالخارج حدود قاعات الدرس والتحصيل، دون اضطلاعهم بفهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية، وسر تقدم الغربيين فى مدارج الحياة الفكرية والفنية والعلمية والعملية. ودعك ممن يبخسون قدر هذه الحضارة، ويتكئون على «روحانية الشرق» ومادية الغرب. فإذا كان معظم الخير فى الشرق هو الروحانية، فإن خيرات الحضارة الأوربية تشمل الروح والمادة معاً، فى توازن أخل به الاستعماريون والمغامرون النفعيون، ولم تتجل الحضارة الأوربية لنا غالبًا إلا فى أبشع صورها، أى فى الرأسمالية والأمبريالية.

والملاحظ – باستثناء التجربة الحية التى يعيشها الطالب فى الخارج – أن كل من تشرئب روحه إلى الرقى الحضارى والتحرر الفكرى يستطيع أن يبلغ الكثير دون أن يغادر بلاده، والنموذج المثالى هو المرحوم عباس محمود العقاد، والفئة المشرقة الحية من أدبائنا الشبان. فهؤلاء يملكون القدرة على متابعة الحركات الأدبية فى الشرق والغرب متابعة طيبة بالاطلاع والدرس العميق، ولا يعتبر نقصاً إن لم تهيأ لهم فرصة الخبرة بالمجتمعات الأجنبية.

ولكن هذا لا يصح دائماً فى كثير من المجالات الأخرى، كالتمثيل والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية، كما لا يصح فى كل جديد من

العلـوم والمعارف والتكنولوجيـا، لأن التجربة الحية والمران والاتصال المباشر أمور لا غنى عنها.

ذهبت إلى فرنسا معبأ بمعنى الحضارة الأوربية فى أصولها الفكرية والفنية، مؤمناً بأن مسـتقبل الوطن رهين بالتمكن من مقوماتها الحقة فى الفكـر والعلم والفن والأدب، لا فى مجرد نقـل التطبيقات العلمية والخبرة التكنولوجية. فأسـاس التكنولوجيا هو العلم البحت، وأساس العلم البحت هو الفكر المجرد ينطلق بحثاً عن حقائق الأشياء فى مجال حر. وقـد خرجت بلادنا بفكـرة عجيبة، هى قلة جدوى الدراسـات النظرية، والبحوث الخالصة لوجـه العلم، وهل من داع لوجود كليات آداب فى كل جامعة مثلا؟!!

معنى ذلك هو إقامة حياتنا القومية على مجرد النقل، لا على تقييم الوجدان والعقـل، وإعدادهما للإبداع والابتـكار. والابتكار فى العلوم يشـبه من بعض الوجوه الإبداع فى الفنون والآداب. فإنك فى الناحيتين إما أن تكون مجرد ناقل ناسخ، ولا قيمة كبيرة لما تنجزه، وإما أن تكون مفكراً، أو عالماً، أو فناناً أصيلا، فتساهم فى بناء حضارة وطنية قوامها الفكر والإحساس، وأساسها العلم والمعرفة.

لقـد أوفدت فى بعثـة كل برنامجها أن أتعلم تربية السـمك، وكان تعليمـى الطبـى فيه الكفايـة وأكثر منها أساسـاً لما وضعتـه البعثات برنامجاً لى. أما وقد سـافرت على شـىء من النضـوج، وعركت بمصر

الحياة العملية سنتين اضطلعت فيهما ببعض المسئوليات، فقد أدركت أن تطوير الاقتصاد القومى فى ناحية الثروة المائية يتطلب شتى المعارف والخبرات. وبذلك تمكنت فى يسر من إقناع الطبيب العالم مدير البعثة التعليمية بباريس بوجوب البدء من أول السلم، أى بدراسة التاريخ الطبيعى والبيولوجيا والفسيولوجيا كعلوم بحتة أقيم عليها تدريبى العملى بمراكز الصيد ومناطقه، ومعاهد الأحياء المائية وعلوم البحار لا فى فرنسا وحدها، بل فى شتى الأقطار الأوربية. وقد كان، فلا أعرف عضو بعثة أكرم بقدر ما أكرمت حين يسرت لى البعثة تحقيق هذا البرنامج إلى ما يقرب من الكمال فى خمس سنوات.

ما إن اطمأن قلبى إلى البقاء فى باريس حتى طفقت أبحث عن سكن حرصت على أن لا يبعد كثيراً عن الجامعة، وفى هذا تقول مذكراتى: «أريد أن أستقر فى مكان لأعود إلى هدوئى الداخلى، وأبدأ حياة منتظمة».

كان لقائى الأول بباريس مضحكاً بعض الشىء، عندما اندفعت جماعة «الأحبا» ذات صباح عابس من محطة ليون إلى فندق صغير بالحى اللاتينى فى شارع من أصغر وأقصر شوارع الحى – وما زلت أذكر ليلة حاولت العثور عليه، فدرت حوله قرابة ساعة ما بين بولفار سان ميشيل وشارعى جى – لوساك، وسوفلو!

والفندق مازال قائماً، وقد طالعت فوق بابه فى العام الماضى لوحة أظنها وضعت حديثاً تشير إلى أن عالم التحليل النفسانى سيجموند

فرويد سكن فى هذا المكان سنة كذا، والغالب أن قد حدث هذا فعلا فى مستهل القرن.

ومما ضايقنى أن اضطرتنا صاحبة الفندق إلى مشاركة كل اثنين فى غرفة، وكان من نصيبى فتى شامى لا علاقة له لا بالبعثة ولا بالتعليم، وقد نسيت الهدف من رحلته. لصق بنا منذ صعودنا إلى الباخرة «الجنرال متزنجر» حتى بلغنا الفندق فى باريس.

وعندما جن الليل التأم شمل «الأحبا» وسرنا فى الطرقات نشاهد مواكب «الكاترينات»، فإذا شريكى فى الغرفة، وقد رأى الشباب يهجم على الفتيات لاختطاف القبلات، نزل كالجائع العطشان يقبل هذه وتلك ويسخر من تزمتى ووقارى!

عدت إلى غرفتى وحيدًا، أحمل هم ذلك الرفيق الصفيق، عندما يعود من تجواله. وإذا به يدخل على، وأنا فى أول إغفائى، ويغير ملابسه تأهباً للسهرة، ويزعق منفعلا «كيف أنام فى باريس والبلد ما بتريد تنام»، وطار إلى خارج الفندق.. ولم يعد فى ليلته، بل لم أر وجهه منذ ذلك الحين!

ولما كانت صاحبة النُزُل تأبى أن تؤجر غرفها الكبيرة لشخص واحد، فقد انتقلت إلى فندق حقق لى الانفراد. ثم كان من حسن حظى أن وفقت فى بضعة الأيام التالية إلى بنسيون بورجوازى علم قيد خطوات من الجامعة ومن المعهد الأقيانوغرافى، تطل منه نافذتم

بالدور الرابع على حديقة اللوكسمبور وقد تعرت أشجارها الباسقة من أوراقها، وعلى مجلس الشيوخ القائم فى وسط الحديقة، وأرى أبراج كنيسة سان سولبيس على البعد، وكذا أسهم أبراج السانت شابيل، وأسمع دقات ساعة كنيسة السوربون.

وكان سكان البنسيون يجتمعون حول مائدة طويلة واحدة فى الغداء والعشاء، وجلهم من الفرنسيين، ومن بينهم أسرة كاملة جاءت من الأقاليم لترعى أولادها فى المدارس والجامعة، وطالبة تدرس اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية.

فهذا الاستقرار فى نُزُل محترم، وسط فرنسيين، وشابين من أبناء علية القوم فى اليونان ورومانيا، ساعدنى كثيراً على ممارسة اللغة الفرنسية واستيعاب الحياة الاجتماعية فيما لا يدرك من الكتب أو الدوريات. وإذا كان تسعون فى المائة أو أكثر من طلبة كلية العلوم فرنسيين وفرنسيات، فإن خطواتى الأولى بباريس تنقلت وسط أهل البلاد فيما بين المسكن وقاعات الدرس.

تقول مذكرتى فى ديسمبر سنة ١٩٢٥، وقد وصلت إلى باريس فى ٢٣ نوفمبر، بأننى معجب بالحى اللاتينى ومظهر الطلبة فيه، وأننى شهدت متحف اللوفر، وتجولت فى شوارع المدينة العظمى لأتعرف على معالمها، وزرت قصر الأنفاليد، وذهبت إلى الحفلات السمفونية، وسمعت الموسيقى الدينية فى كنيسة السوربون. وإن

أول تمثيلية حضرتها هى «تاجر البندقية» بمسرح الأوديون، إخراج وتمثيل جيميه، والثانية «سانت جون» لبرنارد شو إخراج جورج بتويف، وتمثل لودميلا بتويف دور البطلة العذراء، والثالثة رواية «محتوى البشر» لوليير تمثيل ألبير لامبير على مسرح الكوميدى فرانسيز، ومعها فارص «الحب المداوى». وتصف المذكرات «شعور الرهبة والإعجاب والدهشة، وهو ما يتملكنى كثيراً منذ حضورى إلى هنا، عندما دخلت الأوبرا لأرى وأسمع أوبرا "بوريس جودونوف" للموسيقى الروسى الأعظم مسورجسكى».

وتعددت زياراتى لقصر اللوفر، علقت على زيارة خصصتها لقاعات النحت فى العصر الكلاسيكى قائلا: «والآن أقوم إلى النوم ومرأى التماثيل البديعة لا يزال ماثلا أمامى وسأغمض عينى لأرى فى الظلام أشباحَ تلك التماثيل الخالدة تدور حولى كما كنت أدور بينها. فينوس ميلو لن تبرح مخيلتى، والسعادة التى تشملنى وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأعمال العظيمة هى سعادة تجعلنى أحب الحياة أكثر من ذى قبل، الناحية العالية من الحياة».

«لنستوح تلك الصخور الحية مرة أخرى، فهى رسالة الفنان إلينا، والفنان نزل على الأرض يحمل علم الإحساسات الرفيعة، والتفكير السامى، ويتكلم بما توحيه إلينا تلك الأعمال الخالدة».

«سأنظم وقتى لأذهب كثيراً وبطريقة دورية إلى اللوفر، وسأزور قاعات الصور على مهل. فحياتى لا تجرى على نظام حتى هذه الساعة، وعلىَّ واجبات كثيرة أريد أداءها: درس العلم أولا، ودرس الحياة الباريسية، والاطلاع على كل ما يجرى حولى»..

«أما خطتى فهى بسيطة: أريد أن أعيش عيشة كد واجتهاد، على اتصال بالفن الذى أحب، والعلم الذى أحصل. الاطلاع فى المنزل، وتتبع الحركة الفنية خارجاً: الموسيقى والتياترو والتصوير والحركة الأدبية. وإذا استطعت شراء كمنجة هذا الشهر، فسأبدأ دروس الموسيقى عن قريب».

وختمت مذكرات عام ١٩٢٥ مشيراً بهذه الفقرة القاصرة إلى زيارة جديدة لقاعات الصور بقصر اللوفر: «هذا بعض ما أذكره مما رأيت اليوم. أما أن أتكلم على شىء، فذلك ما لا أجد فى نفسى ولا على لسانى، ولا فى قلمى قوة للتعبير عنه. كل ما أستطيعه هو القول بأننى أعيش فى يوم مثل هذا خمس سنين من حياتى».

ذلك ما كان من أمر خطواتى الأولى بباريس.

دراسة وبحوث وتحصيل حضارة

لا يتوقَّعَنَّ القارئ أن أقحم خصوصياتى على هذه الصفحات، فإنى لا أكتب هنا ترجمة شخصية، بقدر ما أسجل لمحات عاجلة من رحلة الحياة. أزعم أو آمل أن يجد فيها القراء مأرباً.

هأنذا أحاول أن أستعيد دون ترتيب زمنى بعض ذكريات نيف وخمس سنوات (نوفمبر ١٩٢٥ - فبراير ١٩٣١).

بدأتها طالب علم بأوربا، فتعلمت أشياء، وحصلت حضارة. ودرست علوماً جديدة، وأضفت لغة إلى اللغات الأجنبية التى تعلمتها أو بدأتها فى مصر. حصلت أربع مقومات للحضارة: حب العلم لذاته بما يعدل ويوازن حبى للأدب والفن، وكلف بالرحلات فى البر والبحر، وقد زرت خلال بعثتى عدة أقاليم فرنسية، ثم إنجلترا وتونس والجزائر وألمانيا والدانيمارك والنرويج وإيطاليا والنمسا. ووعيت الفن روح الحضارة وقلبها النابض، وعيته فى معناه العام لا فى تخصص بعينه، ما عدا الموسيقى التى حرصت على دراستها وممارستها إلى أقصى ما فى مقدرة الهاوى الجاد. وأخيراً تمكنت من التغلب على الرومانتيكية، وانتقلت من المذاهب الواقعية إلى شتى الحركات المعاصرة فى الفن والأدب، بفضل المتابعة القريبة لما يصدر من كتب، ودوريات، ويلقى

من محاضرات عامة، ويسمع فى قاعات الموسيقى والمسرح، ويعرض فى المعارض.

هذا نموذج – على سبيل المثال – من انفعالى بالأدب المعاصر، فقد عدت من إنجلترا سنة ١٩٢٩ ومعى كتاب «بنط كونترابنط» لألداس هكسلى، نبهنى إليه مقال لأرنولد بنيت. وسجلت فى مذكراتى هذه الكلمة، عقب انتهائى من الفصل التاسع لتلك القصة التى كان لها فى العشرينات أثر بالغ: «باريس فى ٧ مايو ١٩٢٩: الأولى بعد منتصف الليل! سعيد فى جلستى. اكتشفت كاتباً قوياً مفعماً (؟؟)، ألداس هكسلى. لم هذه السعادة؟ أشعر بالقوة الذهنية يختلج بها الكتاب الذى أطالعه الليلة. يا لله! كأنى بلغت بئر الحياة (أشير هنا غالباً إلى أسطورة مية المحياة)، والحياة يتسع مجالها أمام بصرى، خطوة إلى الأمام، وتحفز لوثبة أخرى فى مجهول المستقبل. أهو مجهول إلى هذا الحد؟ ما هذه الآمال الجلى؟ يا للغضب يملأ صدرى، وتلك البراكين الثائرة فى جوانحى متى تجد منفذاً، وإلا فستنفجر فى داخلى لتبعثر كيانى للرياح».

وهذه مناجاة للمصور الهولندى رمبرانت والألمانى ألبرخت دورر، عقب زيارة للمتحف الفنى التاريخى بفينا:

«فينا فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٠: أنت يا رامبرانت صديق قديم، فى عيونك العميقة وشفاهك المظلمة أطالع سماء صورتك الأخرى فى اللوفر،

وأحس بأنى أسير سحرك حتى الموت. أمام لوحاتك يا رمبرانت لا أشعر بأى تعب ذهنى، ولســت بحاجة إلى نقلة روحية، فأنا فى مجال كله صحة وعافية، أمام المسطاح الذى هو لا شىء، وهو كل شىء. فى صورتك الشخصية أغوص إلى أعماق سريرتك، أمسك خلال العينين المفتاح الذى يفتح لى مغاليق الأسرار وراء واحد من المائة باب وباب»..

«وأنــت يا ألبرخت دورر، حبوت إليك حتى عرفتك منذ البناكوتيك فى ميونيخ، ولكنى لم أبلغ ســر تطورك. هل العبقرية هى حقاً مواصلة عمل بطئ؟ ولكن البطء يضفى على الإنجاز الفنى صلابة وتخشــباً بينما نرى فى فنك تطوراً وتحولا متواصلا، مع دقة الملاحظة العلمية فى عصر ربمــا كنت فيه من أعمق العلميين، وتصنع يداك مع هذا عملا على قدر هائل من قوة التعبير . كيف أنسى رسومات «الفارس والشيطان والمنون» و «القديــس هيرونيموس» و «أربعة فرســان الأبوكالبس» (حلم يوحنا الإنجيلى)، ثم لوحات الرســل الأربع، وصورتك فى شبابك. أى عالم خاص بك أبدعت» !

«حقــاً، نحن حيال اثنــين من الفنانين اتخــذ كل منهما إلى الخلق والإبداع سبيلا على طرفى نقيض من الآخر: رمبرانت ودورر» !

ونمــوذج من تعليقى على المؤتمر الأفخاريســتى بتونس عام ١٩٣٠، وقد ســافرت إلى هناك لأعمل شهراً فى محطة سالمبو البحرية بضواحى تونس. كنت أسكن فى فندق فرنسى بتلك الضاحية:

«شعورى هنا يغلب عليه الكره للأوربيين المستعمرين. وقد تأملت يوم عيد الفصح ذلك الجمهور النسوقى، برغم ثرائه، يتغدى بالفندق حيث أقيم. دهشت أن يعتبر هؤلاء الناس أنفسهم أرقى من أهل البلاد» وأنزل إلى المدينة فى أوقات الفراغ لأتجول فى تونس الخضراء، ثم أنتهى إلى كتبى أمام جامع الزيتونة أتحدث إليه وإلى زبائنه، وأقتنى من مكتبته بعض الكتب العربية (الأيام لطه حسين، وزينب لمحمد حسين هيكل إلخ) وهزنى الشوق إلى دخول «حمام السوق» التقيت فيه بطلبة من جامعة الزيتونة أطلعونى على موقف الشعب التونسى من الحكومة الحامية، وحدثونى عما يزمعون القيام به من مظاهرات احتجاجاً على عقد مؤتمر دينى مسيحى بالمدينة الإسلامية.

«تونس فى ٢٣ أبريل ١٩٣٠: جلست إلى صاحبى الكتبى أمام جامع الزيتونة بعد جوله طويلة حتى بطحاء الحلفاوين، وعرفت عنده الكثير من عواطف الأهلين نحو المصريين حباً، ونحو المستعمر قلى وكرهاً. الحضارة! هل من حقها أن تدخل حيث تريد، وأن تعلم وتربى وتدرب فى سبيل تقدم الشعوب؟ ربما»!

«ولكن الاستثمار هو الأساس الاستعمارى، وللفرنسيين طريقة فى الاستعمار تسعى نحو جعل الشعوب المغلوبة جزءًا من فرنسا، مثلما فعلت فى الجزائر حين حولتها إلى مقاطعة فرنسية، فأصبح الإيطالى والمالطى واليهودى فيها فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق المدنية

الفرنسية، وبقى الجزائرى المسلم خارج نطاق الوطن الفرنسى. وبهذا قضوا على اللغة والعادات وشخصية الشعب الجزائرى».

«ومع أن تونس حماية فحسب، فإن فرنسا دائبة وراء جعلها قطعة منها. ولكن ظهر لى أن فى تونس روحاً من المقاومة أحسب أن ستكون لها الغلبة فى النهاية. فها هى ذى فرنسا العلمانية تسمح للمؤتمر الأفخاريستى أن يجتمع فى ضاحية قرطاجة، وترغم حكومة الباى على دفع إعانة لإعداد هذا المؤتمر الدينى المسيحى فى بلد إسلامى».

«أجل لست أنسى المظاهرات التى قامت فى تونس احتجاجاً على عقد هذا المؤتمر، وقمعت بالقوة. ومنظر عساكر السنغال على جانبى طريق المندوب الفرنسى وعلى يمينه مندوب الكرسى الرسولى فى موكب الإثارة والتحدى. والسفن تدخل إلى حلق الوادى محملة برجال الأكليروس القادمين إلى المؤتمر يرتلون أهازيجهم الدينية. تلك هى صورة فرنسا كما تراءت لى فى تونس. فرنسا التى تزعم فوق أرضها أنها علمانية وتحتفظ بشعار الجمهورية الأولى: الحرية والإخاء والمساواة»!

هذه الفقرات التى اخترتها عفواً قد تلقى بعض الضوء على أنواع المؤثرات التى كانت تعمل فى نفسى، فمن كتاب، إلى حفلة موسيقية، إلى تسجيل ظاهرة اجتماعية أو سياسية. وقد أتأمل على البعد موقف بلادى الرازحة تحت الاحتلال الأجنبى فأقول:

«لا شك أن تعاقب الحكام الأجانب على بلادى - وجلهم غاشم - كاد يميت فيها كل حياة. ومن المؤكد أن ما عمله محمد على لم يكن إلا لمجد نفسه وفكرة التوسع الحربى. وما صنعه إسماعيل ليس سوى طلاء بقصد الظهور بمظهر المتمدين.. يجب أن يتعلم التلاميذ التاريخ الحقيقى لهذه البلاد فى العصور الحديثة، وأن يفهموا الحركة العرابية على وجهها الصحيح.. يجب أن يقود أقدار هذه الأمة رجال فى شبابهم وعنفوان قوتهم، شخصيات نادرة تجمعها الصدفة لتقود أقدار البلاد. وعلينا أن نعمل كثيراً للنهوض بها. وما أراه الآن على البعد ليس كافياً، فمازلنا نغطى عوراتنا بأوراق الشجر، لم نفهم بعد ما علينا أن نفعل».

«هذا الفلاح! فريسة كم من الجنسيات: الإنجليزى واليونانى والإيطالى والفرنسى والتركى والباشا المصرى والأفندى. أمة تريد الحياة، ولا تعرف سبيلها إلى الحياة لأنها لم تجد الرجل الذى يقودها». (باريس فى ٢٦ يوليه ١٩٢٦).

توضح المذكرات خطواتى على الطريق الوعر، ومحاولتى ركوب أكثر من فرس فى آن واحد. كانت حياتى سعيدة فى ظاهرها، قاسية فى صميمها. يتقاسمها الواجب الأول، وهو دراسة العلم، دين الدولة على، ثم متابعة نزعات محمومة كلفاً بالفن والأدب، مع فحص المجتمع حولى، والنفاذ إلى السياسة الدولية، يمنة ويسرة. كنت أطالع فى

الصباح صحيفة يسارية، وبعد الظهر جريدة الرأسمالية «الطان» أكبر الصحف الفرنسية.

ولقد أدركت منذ أول لحظة – مما سبقت الإشارة إليه فى تشبيه حالى بابن يتنازعه أبوان انفصلا عن بعضهما – بأنه من أصعب الأمور إقامة توازن بين الواجب الأول، والنزعات والنزوات. شبيه بالموازنة التى حققتها بين أفكار أهل اليمين وأهل اليسار فى السياسة. وأمر السياسة سهل، إذ لم أكن أكثر من متفرج، لا تشده إليها سوى فكرة العدالة الاجتماعية، والحد من شراسة رأس المال، وجهود أريستيد بريان فى حملته التاريخية من أجل السلام، يقرن اسمه آناً باسم كيلوج وآنا آخر باسم شتريزيمان. كنت مدركاً تمام الإدراك المأزق الذى وضعنى فيه تعدد نزعاتى، وشراهتى غير العادية نحو المعرفة، مقدراً أننى لن أستطيع طويلا تحقيق التوازن فى حياتى.

ولقد أعاننى على اجتياز محنتى، والاحتفاظ ببعض التوازن أمران:

الأمر الأول: إقامتى وسط شعب يحكمه العقل لا العاطفة – ويبدو قولى عجيباً لمن لا يعرف الفرنسيين فى صميم حقيقتهم، لأنه يقارن دائماً بين سرعة إثارتهم، وبين البرود البريطانى – فى بلد حبته الطبيعة بالتوازن: شعب جاد عامل، ولكنه من أكثر الشعوب إقبالا على متع الحياة، حسياً وذهنياً وعاطفياً. شعب آلف بين طبيعته الزراعية وتطوره الصناعى، فلم تطغ الصناعة عليه طغيانها على إنجلترا. بلاد

تجمع داخل حدودها الأراضى المنبسطة والجبال الشامخة، تشرف على ثلاثة أبحر، طبائع أهلها شمالية فى الشمال، وهم فى الجنوب أقرب إلى أهل البحر الأبيض المتوسط.

الأمر الثانى الذى ساعدنى على الخروج من المأزق بين العلم والفن والأدب شىء لم أك أتوقعه، أنا الذى سلخت سنوات من عمرى أدرس الطب وأمارسه ثم طرقت العلم من أبوابه. حدث هذا الشىء بفجائية درامية، لو صنعها مؤلف تمثيلى لدمغه النقاد بالافتعال، وهو أننى عشقت العلم، وما زلت مقيماً على حبه. ويرجع الفضل كل الفضل إلى إقامتى على شاطئ البحر ببلاد البريتانى، أشتغل بمعمل من أهم المعامل البحرية الفرنسية، بقرية روسكوف، فى إقليم الفينستير.

حدث ذلك فى صيف سنة ١٩٢٧؛ وكان برنامجى أن أعمل مع أستاذ الأحياء المائية بجامعة تولوز فى محطة بيولوجية صغيرة بأعالى جبال البرينيه على ضفاف بحيرة أوريدون. ولظروف خاصة لم يتحقق هذا البرنامج، وقضيت بعض الصيف سائحاً عادياً فى البرينيه. ولعلى فى قرارة نفسى أردت أن أعوض ما فاتنى على ضفاف بحيرة أوريدون فسافرت من أقصى الجنوب الغربى إلى أقصى الشمال الغربى، من كوتريه ولورد وبوبجبال البرينيه حتى البريتانى فى رحلة طويلة كثيرة التنقل بين القطارات، أظنها استغرقت أكثر من ثلاثين ساعة. وعندما وصلت إلى روسكوف أحسست كأنى حقاً بلغت منتهى الأرض «فنيستير».

وفى روسكوف، أمام أحواض الأكواريوم، ثم على ممتد الشاطئ الذى يغطيه المد ويعريه الجزر إلى فراسخ وفراسخ، والأستاذ المقيم يقود خطانا بين أعشاب الألجا، نقلب الصخور، ونجمع الأحياء لنتعرف عليها فى مواطنها...

أحسست لأول مرة، أنا ابن دروب القاهرة القديمة، الذى لم ير البحر قبل سن العشرين، وكأننى خلقت للبحر وحياة البحر ودراسة البحر. والعجيب أننى بعد نحو أربعين سنة من صيف ذلك العام مازلت أحن إلى تلك البلاد البحرية الشمالية ذات التقاليد العتيقة، وأعود إلى ارتيادها كلما سنحت الفرصة.

أطلت إقامتى ذلك الصيف من خمسة عشر يوماً إلى شهرين. وفى محطة روسكوف البحرية بدأت محاولتى الأولى فى البحث العلمى بدراسة وسيلة بعض الديدان البحرية فى بناء مساكنها الكلسية. وإذا كان ذلك البحث قد سمرنى إلى جدران معملى وربطنى بالميكروسكوب والأكواريوم والمكتبة، فإن تجوالى بشواطئ البريتانى يعريها الجزر، دراسة لأحياء القاع وتوزيعها الأيكولوجى، كان هو أيضاً ظاهرة من ظواهر الحب العميق للملاحظة العلمية.

تقول مذكراتى: «فى روسكوف تكشف ميلى الشديد إلى العلم، وذلك لأننى خبرت لأول مرة جمال الملاحظة المباشرة، وتجلى لعينى فقر الدراسة «إن فيترو» (فى معنى خلف الزجاج). هنا فى روسكوف

نمت فجأة ملكـة البحوث البيولوجية، بحكم جو المباراة العلمية بين مجموعة من شباب الأمم تستضيفها المحطة المشهورة كل صيف. بدأت هنا بحثـي الأول، وأرجو ألاّ يكون الأخير، بعـد أن انزاح الغطاء عن عيني لأدرك جمال الحياة العلمية».

أى إن التـوازن بين الواجب (العلم) والحـب (الفن والأدب)، وهو الـذى حاولت تحقيقه بقوة الإرادة، لم يعـد بحاجة إلى تلك الإرادة، ما دام العلم هو أيضاً قد اسـتقر بين شغاف الفؤاد. فلم يعد الانتقال من الفن إلى العلم أشـبه بالعودة من جو الحرية الطليق إلى قشـلاق النظام والواجب، إذ تحولت حياتى منذ تلك اللحظة إلى هيام متكامل.

ومع أنى قد انصرفت فى عشـر السـنين الأخيرة إلى الفن والأدب، بحكم ما ألقى على عاتقى من أعباء رسـمية وشـبه رسـمية، فإن حبى للعلم باق لم يضعف. أنظر إليه اليوم بشىء من الحسرة على بعاده، وقد أمسى عندى فى حكم الحبيب الغائب أذكره بكرة وعشياً، وكل رجائى ألاّ يكون العلم قد طوانى من ناحيته فى بوادى النسيان.

خاتمة مطاف طويل

حان ختام هذه الحقبة من حياتى الأوربية، إلا أن أنقل هنا فصول كتابى «سندباد إلى الغرب»؛ وكلها صور وانطباعات وتأملات من الحياة فى صميم الحضارة الغربية، أو أن أعيد كتابة رحلاتى خلال سنى التحصيل، من واقع مذكراتى، وليس هنا مكانها.

فلنتخيل فتى خرج من بلاده لأول مرة سنة ١٩٢٥، وأنه على وشك العودة بعد خمس سنوات من الإقامة فى بلاد الغربة، ماذا يكون شعوره حيال تطوره العقلى والروحى؟ لا أظنه تغير كثيراً فى مظهره أو مخبره، ولو أنه حقق بالفعل ما توقع بعضه قبل السفر بالاطلاع والخيال، مع كلف صادق بالحضارة الغربية.

ومع ذلك فأنت تذكر كلمة وردت فى مذكراته يقول فيها لدى وصول سفينته الأولى إلى مرسيليا: «ماذا أفعل عند النزول إلى البر، وأنى أذهب، وكيف أسافر؟»، وتذكر تعليقى الساخر على هذه الكلمة بقولى: «سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره!».

أتعرف كيف عاد من باريس إلى القاهرة فى ختام بعثته التعليمية، وكم من الزمن استغرقت رحلة العودة هذه، فى مقابل ستة الأيام التى نقلته من القاهرة إلى باريس؟

لقد غادر باريس نهائياً فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠، فلم يصل إلى القاهرة إلا فى أوائل فبراير ١٩٣١. كلا، لم تكن ظروف حرب عالمية دارت به سفينته حول كيب هورن أو رأس الرجاء الصالح. كل ما فى الأمر أنه عبر الحدود الفرنسية الألمانية إلى كولونيا ودوسلدورف: «دوسلدورف فى أول يناير ١٩٣١: عام جديد، نهاية سنوات التحصيل فى أوربا، وبدء الجهاد الأكبر.. قضيت أكثر الأمس فى كولونيا أكتب بطاقات معايدة، وشاهدت مسرعاً الكاتدرائية القوطية: بناء ذو جمال مؤنث، ولكن فحص التفاصيل كشف لى عن ترميمات وإصلاحات كثيرة. ثم إنى لم أشعر أمام التماثيل بهزة الإعجاب العنيفة التى عرتنى أمام كاتدرائية شارتر».

ألقيت نظرة عاجلة على أجمل ما فى كولونيا: كنيستها من النمط الرومانسكى، ثم سافرت إلى دسلدورف حيث نزلت ضيفاً على أسرة ألمانية صديقة، عرفت ابنة لها فى باريس. احتفلت مع الأسرة بعيد رأس السنة حسب التقاليد والتقاليع الألمانية اللطيفة: ارتجال الأشعار الهزلية وتبادل هدايا ترفيهية، «وشوف بختك» فى الرصاص الذائب عندما يتجمد بإلقائه فى ماء بارد، ولبس الطراطير المسخرة.

وسعدت أسرة الراين بصديقها المصرى عندما شاركها فى أداء موسيقى، ربما كان صوناتة لموزار أو بيتهوفن.

وسافرت إلى هامبورج لأقضى أسبوعاً فى مركز أبحاث المصايد يديره الأستاذ إرنباوم، وأياماً أخرى بالمعمل البحرى المشهور فى جزيرة

هلجولانـد (وهى التى أزالهـا الحلفاء كلية فى آخـر الحرب العالمية الثانية) ، وزرت موانى الصيد فى بريمن وفيزرموندە.

وغـادرت هامبورج إلى كوبنهاجن استجابة لدعوة يوهان شميت العلامـة الدانيماركى الأشـهر، وهى دعوة تلقيتها على ظهر سـفينة الأبحاث «دانـا» عندما زارت ميناء تونس، وبعد أن استضاف المعمل البحرى فى سالمبو أعضاء البعثة برئاسة شميت.

زرته فى معمله الذى أنشـأه صانع بيرة دانيماركية، وأطلعنى على أدوار تطور زريعة الحناشـة من بحر السـرجاس وسط الأطلنطى حتى بلوغها مصاب الأنهار فى غربى أوربا. ثم دعانى للغداء فى منزله.

ومـن كوبنهاجن عبرت السـوند - مدخل البلطيق - إلى السـويد، واخترقـت أرضها إلى أوسـلو لمقابلـة العلامـة الأقيانوغرافى يوهان يورت، ثم إلى برجن للقاء هلاند هانسن وسفير درونب وأوسكار سوند، ولقضـاء ليلة بمعمل جزيرة هردلا البحرى وسـط فيورد برجن. وعدت إلى أوسلو، ومنها عبرت البلطيق إلى ميناء شتيتن، وبالقطار إلى برلين لزيارة الأكواريوم ومتحف العلوم البحرية. وسافرت بالقطار من برلين رأسـاً إلى البندقية، لأستقل السـفينة «حلوان» إلى الإسكندرية، بعد شهر من مغادرة باريس.

هذا هو الشـاب الذى تساءل عند أول وصوله إلى مرسيليا ماذا يصنع عند النزول إلى البر؛ وَأَنَّى يذهب، وكيف يسافر!

كنت فى مصر أعالج القصة القصيرة ووضعت نص أوبرا. وحاولت ذات صيف بفرنسا كتابة قصة طويلة. وإذا بأسفارى فى سنوات التحصيل وقد قادتنى إلى أدب الرحلات، فخرجت كتبى فى أغلبها رحلات مادية فى المكان، أو فكرية فى الزمان: «سندباد عصرى» جولات فى المحيط الهندى. «حديث السندباد القديم» دراسات الأساطير والقصص البحرية فى الكتب العربية. «سندباد إلى الغرب» صور من حياتى فى دنيا الحضارة. «سندباد مصرى» جولات فى رحاب التاريخ، تاريخ أم الحضارة.

وقد أعدتنى لكل هذه الكتب أسفار طالب البعثة الشاب إلى عدد من الأقاليم والأقطار، سجل أغلبها فى مذكراته، ولم يؤلف فيها الكتب.

والنهج الذى سلكته فى رحلاتى الأولى قضت به ظروف عملى، فأصبح طبيعة ثانية لى. كانت أغلب تلك الرحلات على حساب البعثة التعليمية، فكان واجبى الأول فيها العناية بالناحية العلمية، ثم الانتفاع بأوقات الفراغ فى زيارة المتاحف والآثار الفنية، والتاريخية، سواء فى المدينة التى أقصد لغرض علمى أو فى الطريق إليها. مثال ذلك تونس للاشتغال بمحطتها البحرية فى ضاحية سالمبو. زرت متحفها التاريخى بقصر «الباردو»، ومتحف لافيجرى بضاحية قرطاجة، وسافرت إلى القيروان مدينة عقبة بن نافع لأزور مساجدها الأثرية العتيقة (سيدى عقبة، وأبى زمعة البلوى إلخ) وفى برلين، تهيأت

لى زيارة متاحفهـا الفنية الكبيرة الثلاثة: المتحف القديم، والجديد، ومتحـف الإمبراطور فردريـك. وكذلك الحال فى هامبـورج وميونيخ وسـالزبورج وفيينا. وحتى فى النرويج لم تفتنى زيارة قبر الموسـيقى إدوارد جريج، واكتشاف قصاصها الكبير يوهان بوير.

«برجـن فـى ٢٣ ينايـر ١٩٣١ : ... ها أنذا فى بلادك يا اموندسـن ويانانسـن. أنا ضيف عليك يا جريج، ياذا اللحـن الرومانتيكى الحلو فى مؤلفاتك للبيانو، أو للصوت أو للأوركسـترا. ضيف عليك يا إبسن، أيهـا الثائر! أواثق أنت من أنك هيأت السـعادة ؟ لبطلتك نورا؟ (بيت الدميـة). انظر إلى العالم حولك الآن. أهى سـعيدة المرأة فى المكاتب، وأمام عجلة القيادة، وفيما تشغله من وظائف دنيا أو وسطى؟ أنا عرفتها سعيدة، مختالة بنفسـها، فى الجامعة، ولكنى لم ألحظ تغييراً كبيراً فـى مثلها وآمالها. إنها لا تطلب عن حياة المرأة بديلا. ولكن فى حرية كاملة، دون خضوع لرجل..».

والشاعر القديم لم يهمل شأن الطبيعة فى أسفاره، لا سيما وأن أغلب ما شهده كان غريباً عليه، مثيراً لدهشته: الجبال الشوامخ، والغابات، ومساقط المياه، والثلوج والتزحلق على الجليد.

«بورتو – كورسـيكا فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٦ : ... فإذا اتجهت ناحية الشـاطئ وجـدت الغابة مكتسـية ألوانها الخضراء زاهيـة ثم داكنة، والجبال مشـتعلة فى قناتها بتلك النار الحمـراء المكونة من صخورها

وشمس الغروب، والظلال ترتفع لتحتل البقاع التى تودعها الشمس، والألوان البنفسجية تكسو الجبال، والضباب الخفيف الحالم يغطى بعض الجبهات».

«بين رمادية المغاور وخضرة الأشجار، وسط انعكاس آخر أنوار النهار فى مياه البحر المائجة، والنهير المنسابة، وأمام زرقة الماء قرب الشاطئ، ولونه الذهبى عند مغرب الشمس، وراء السحب تضىء أطرافها بلون مذهب كأنها تزركش ثوب العروس فى هذا المساء.. فى أصوات تلك السمفونية المؤلفة من حفيف الشجر وخرير النهر يضيع فى البحر، والأمواج تتكسر فوق الصخر، فيقوم الرغاء الأبيض فى أشكال سحرية كأن فينوس أخرى تخلق من الزبد.. فى تلك الطبيعة الجميلة المتغيرة المتشكلة أفكر، وأطالع، وأتامل الغروب».

لم أحدثك فى قليل أو كثير عن الموسيقى، وكانت هى وحدها، إلى جانب العلم، شيئاً أصيلا جدا فى دراساتى. حرصت فى كل مدن الحضارة على ارتياد الحفلات السمفونية والأوبرا وكنت عضواً بأوركسترا الهواة فى تولوز وأوركسترا جامعة باريس.

وتشاء الصدفة أن أختم سنوات التحصيل بمشاهدة أوبرا بيتهوفن الوحيدة «فيديليو»:

«برلين فى ٢٩ يناير ١٩٣١: "فيديليو" بأوبرا بلدية شارلوتنبرج، أداء عادى، ماذا يهم؟ هؤلاء الألمان يعيشون موسيقاهم العظيمة،

وفيديليو عمل نبيل، تتخلله وتختمه رنة فرح عارم، برغم أزمة الفتاة ليونـورا تتنكر فى زى غلام لتنقذ حبيبها مـن الحاكم الظالم، وتختم القصةبانتصار العدالة. موسـيقى جديرة ببيتهوفن مهما تقول القائلون تشـكيكاً فى قيمتها كأوبـرا. فكرت بالصدفة العجيبـة التى جعلتنى أنهى سنى التحصيل فى أوربا بالاستماع إلى هذا العمل الكبير».

وسـافرت فى اليوم التالى إلى البندقية رأساً، حيث شاهدت كنيسة سـان مارك، ثم متحف الفن، لأترع روحى بروعة الألوان عند مصورى عـروس الأدرياتيـك: جيوفانى بللبنـى، بالمافكيـو، جيورجيونى، فيرونيزى، تنتوريتو، تسيانو.

كانت رحلة الإياب إلى الوطن عن طريق الشـمال الإسـكندنافى، ثم عبر أوربا، صورة مصغرة مركزة لسنواتى الخمس فى بلاد الغرب.

وأخيراً أتسـاءل: هل أغرتنى تلك الحياة بالبقاء هناك دائماً؟ يجب أن أصدق مع نفسى: لقد ساورتنى فى بعض فترات نزوة من هذا القبيل، وكان من حظى أن قد تحصنت ضد جرثومة الرومانتيكية – ولو لم أقض عليها تماماً – فاسـتطعت أن أخضع عواطفى الهوجاء لقياد العقل المفكر المدبر، وذلك بفضل المنهج العلمى، والنظام الصارم الذى يقضى به.

خاطبنـى العقل بـكلام كهذا: استسـلامك للحيـاة الأوربية معناه أنـك تجبن أمام قفر الحياة الذهنية والفنيـة فى مصر. ولا قيمة لحياة الاستسلام للدعة والرفاهية، حتى ولو كانت دعة الفن ورفاهية الثقافة.

الحياة جهاد يا صاحبى، كتب على الجميع، لا على الجنود وحدهم فى ساحات الوغى، والبسالة ليس مكانها ميدان القتال وحده.

بهذا تكلم العقل، وأخجل أن أضيف قولا تلوكه الألسن حتى فقد جديته: أنت ابن الوطن الفقير إلى الله تعالى، لا شك أنه بحاجة إلى كل فرد من أفراد شعبه مهضوم الحقوق من السماء والأرض، والوطن أسدى إليك معروفاً، مهما صنعت حتى آخر رمق لك فى الدنيا فلن تستطيع الوفاء به.

المحتويات

في ضباب الذكريات البعيدة ٥

رفقًا أنجشه ١١

غرام في السيرك ١٧

كشك الموسيقى ٢٧

ناظر المدرسة الحديثة ٣٥

شيكسبير في خان جعفر ٤٥

يقدم رجلا ويؤخر أخرى ٥٣

عودة إلى كراسة الإنشاء ٦١

من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية ٧٣

قصة شغفى بحضارتنا الأولى ٨٥

يدخل هواة المسرح ٩٧

الموسيقى الصعبة ١٠٥

أفندية بحق وحقيق ١١٣

يا عم حمزة احنا التلامذة ١٢٣

زاوية العميان ١٣٣

طبيب العيون ، وعيون السمكة ١٣٩

البعثات وما أدراك ما البعثات ١٤٥
إنما الدنيا مسرح كبير ١٥٥
طالب البعثة التعليمية ١٦٣
أهلاً وسهلاً بالأحبا ١٧٣
الخطوات الأولى بباريس ١٨٣
دراسة وبحوث وتحصيل حضارة ١٩٣
خاتمة مطاف طويل ٢٠٣

العدد القادم

تنمية عادة القراءة عند الأطفال

يعقوب الشاروني

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٤٨ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٦٦ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٧٥ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة اكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٨٧٠١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6804-6

١٦/٢٠٠٥/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)